العربي ايشبودان

مدينة الجزائر

تاريخ عاصمة

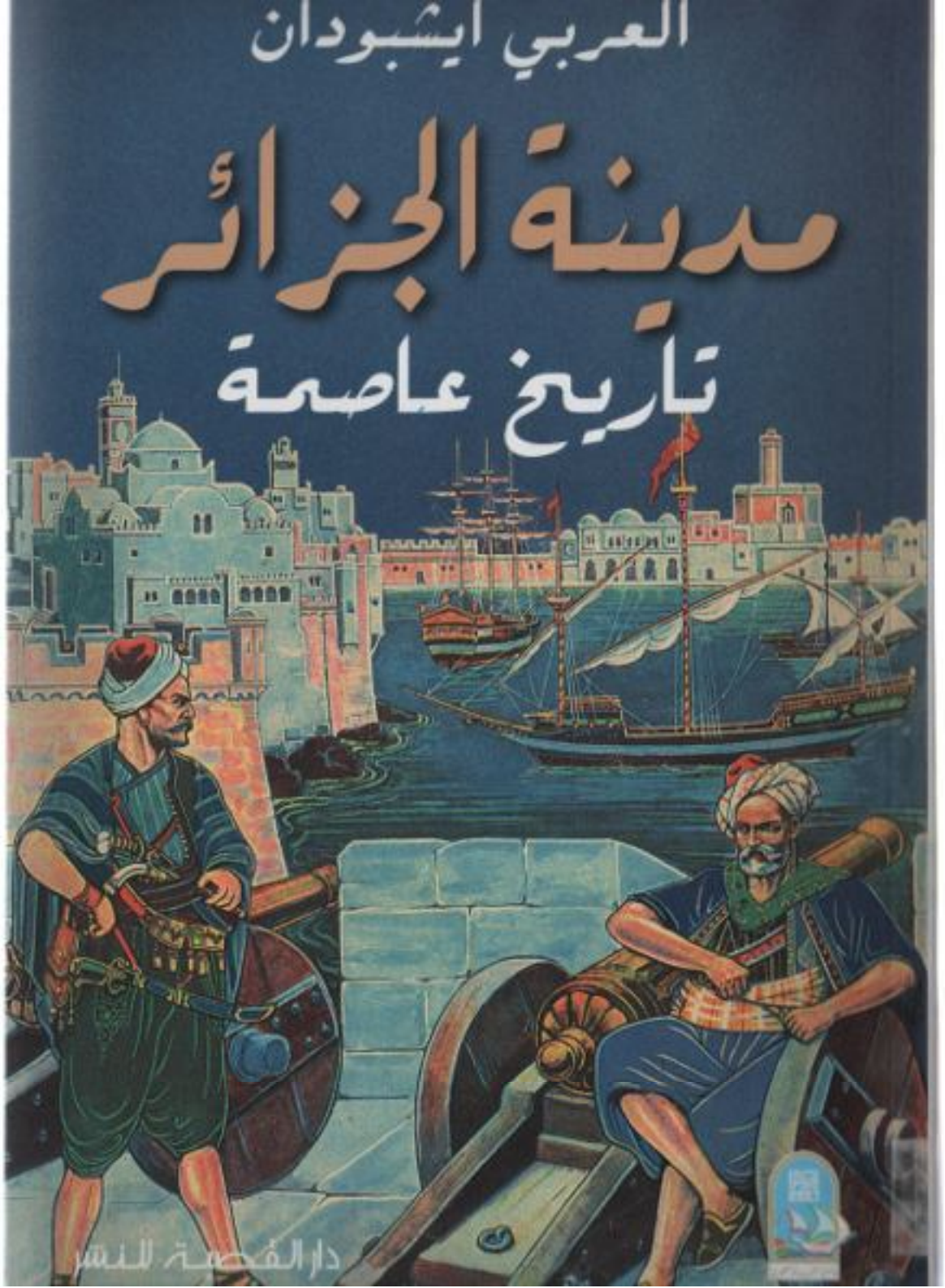

دار القصبة للنشر

العربي إيشبودان

INSCRIT AU REGISTRE D'INVENTAIRE
Sous le N° DC/B.1.8599/03

مدينة الجزائر

تاريخ عاصمة

ترجمة : جناح مسعود

مراجعة : حاج مسعود مسعود

وزارة الثقافة
المكتبة الولائية مهدي محمد
مديرية الثقافة لولاية الشلف

المكتبة الولائية

دار القصبة للنشر
فيلا 6، حي سعيد حمدين – 16012، الجزائر

العنوان الأصلي للكتاب :

Alger, histoire d'une capitale

تمت الترجمة في المعهد العالي العربي للترجمة (الجزائر).

© دار الحضارة للنشر، الجزائر، 2007.

تدمك : 7 – 626 – 64 – 9961 – 978

الإيداع القانوني 2003 – 2006

جميع الحقوق محفوظة.

مدخل

الجزائر – هذه المدينة العاصمة منذ العهد التركي – التي تحولت جراء الاستعمار ولصالحه مازالت تحمل آثار التناقضات الاجتماعية والجغرافية لذلك النظام.

وكانت تمثل عند الاستقلال، فضاء معزولا موروثا عن التمايزات الحاصلة بين مجموعتين بشريتين متعاديتين.

كانت مدينة الجزائر تتكون آنذاك من مدينتين، تشكلان مجموعة من العناصر المتصلة فيما بينها، فهي مدينة غنية ذات بنايات فخمة تحمل اسما ونمطا وحقبة، ولكنها أيضا "لامدينة" بأكواخها القصديرية.

لقد تحولت الجزائر، ابتداء من عام 1962 – وتكريسا للسلطة الوطنية – إلى ملتقى تقاطع والتقاء وتكامل، حيث تتنازع مختلف الاستراتيجيات، وأصبحت هذه المدينة رمزا لنظام اجتماعي حضري - منتج لخطاب سياسي وسوسيو ثقافي – من شأنه تنظيم وتوجيه المجتمع.

لقد جعلت الدولة من المدينة فضاء للهيمنة ولتوجيه عجلة التنمية ورمزا للهوية الوطنية.

انطلاقا من هذا؛ أصبحت المدينة تشكل رهانا سوسيولوجيا بدون البحث عن ضرورة الملاءمة بين السياسة الحضرية ونمط التعمير الذي جاء فيما بعد.

إنّ عدد الدراسات المنجزة عن مدن ذات وضعية شبيهة بمدينة الجزائر قليل وهي في الغالب من إعداد جغرافيين ومؤرخين.

تتميز الدراسات، المنجزة خلال الحقبة الاستعمارية، تركيزها على إنجازات الاستعمار وتغييب الفضاء والمجتمع المسلم؛ وكان محتوى تلك الدراسات يُعبّر عن مخاوف مزدوجة أكثر من كونه تحليلا موضوعيا وشاملا للموضوع الاجتماعي.

فأما المخاوف المزدوجة، المعبر عنها في تلك الفترة، فكانت تدور حول مسألة التفوق العددي وظاهرة النزوح من الأرياف نحو المدن ابتداء من ثلاثينيات القرن الماضي؛ وأما الدراسات حول حقائق الحقبة الاستعمارية فلم تصدر إلا بعد اندلاع الثورة ونشوب حرب التحرير الوطنية؛ والحقيقة أن عهدنا الحالي ليس أكثر خصوبة في ميدان البحوث والدراسات حول المدن.

أما فيما يتعلق بأعمال علم الاجتماع العمراني، فإن ما أنجز من دراسات اقتصر فقط على البحوث الجامعية.

بيد أن هذه المعاينة تمثل نقصا فادحا في تشخيص مشاكل المدينة في بلدنا، وفي مدن العالم الثالث، باعتبار أنها حبلى بالأزمات الاجتماعية المختلفة.

يتمفصل هذا العمل حول فترتين زمنيتين مختلفتين:

- المدينة منذ نشأتها إلى غاية نهاية عهد الأتراك.
- فترة العهد الاستعماري التي أنتجت الجزائر الحديثة.

إن الجزائر، من وجهة تاريخية، لا تعكس مراحل مختلفة، فحسب، بل تُنبئ عن المنطق الكامن في طراز الأنظمة العمرانية المتعارضة.

وبالفعل، هناك نمط ما قبل 1830 الذي يتلاءم مع نموذج مجتمع ونظام اقتصادي معيّن وهناك، على نقيض ذلك، نمطٌ

أفرزه النظام الكولونيالي تماشيا مع مشروع مجتمع آخر يتعين النظر إليه كما هو.

أما انتقال المدينة كعاصمة "كولونيالية أو وطنية" من نمط إلى آخر فيمر عبر الاستيلاء على السلطة السياسية أو ممارستها.

ما الذي يمكن أن يترتب عن هذا، من تغيرات على قوانين المدينة وفي مظهرها عند حدوث مثل هذه القطيعة التاريخية؟

ذلك أن هذه التغيرات تطرأ على المشروع السياسي وعلى مجتمع المدينة مما يجعل من الأهمية بمكان تحليل ذلك التمفصل سواء عبر تاريخ المدينة أو من خلال منطق الأنظمة العمرانية "الحضرية" التي تنظم حياتها الاقتصادية والاجتماعية.

فيما يخص الفترة الأولى؛ نقترح دراسة تاريخ الجزائر كعاصمة ومجتمع، من خلال ملامحه الأساسية، باعتباره تاريخا للوطن الذي عرف هو الآخر تغيرات على صعيد الفضاء الاجتماعي تندرج ضمن آفاق مزدوجة.

إن الفترة الأولى هي فترة المدينة، كمدينة في حد ذاتها، حين كانت حاضرة إسلامية ذات حجم متوسط يقوم تنظيمها على النشاط الديني والتجاري على غرار بقية مدن المغرب العربي.

بحلول العهد التركي ازدهرت مدينة الجزائر ونمت. ولكن ما يهمنا هنا هو معرفة شكل نظام حكمها وتسييرها كعاصمة تشرف وتنظم مجمل مقاطعاتها في شكل باياك ؟

ومن المهم بالنسبة لهذه القلعة المتوسطية تحليل دورها التاريخي وإشعاعها، خلال تلك الفترة المتميزة بالثروة الهائلة، بحيث أضحى اسمها يُطلق على الوطن كله "الجزائر"؛كما يتعلق الأمر، أيضا، بمعرفة الأوضاع الاجتماعية و السياسية لسكان هذه المدينة.

هذا ومن جهة أخرى؛ فإن مدينة الجزائر التي وُصفت بالمدينة ذات الألوان الزاهرة، وحيث تتعايش فيها شتى الأعراق والديانات، كانت أيضا مدينة تضم ثكنات الانكشاريين؛ وهكذا تُطرح مجموعة تساؤلات حول نظامها العمراني وتنظيمها الاجتماعي والسياسي.

من الجدير بالذكر أن تراجع نشاط القرصنة نفسه تسبّب أيضا في تدهور المدينة فهل كان هذا التراجع عاملا رئيسيا في الأزمات الداخلية للسلطة السياسية؟ علما بأن هذه الوضعية أدت إلى إحياء أطماع الأوروبيين القديمة لاحتلال المدينة.

وسوف تمكننا هذه اللمحة التاريخية، المختصرة، من فهم وإدراك أهمية هذه المدينة في الفترات التاريخية اللاحقة لأن تاريخ الجزائر التركية كان، بالرغم من ثرواته وازدهاره، يحمل في نهاية ذلك العهد مورثا اجتماعيا وسياسيا آل بها إلى النكبة الاستعمارية في سنة 1830.

ونعتبر الفترة الثانية فترة القطائع التاريخية الأساسية التي طرأت خلال العهد الكولونيالي: قطيعة مع عالم ولى إلى الأبد، عرفت الجزائر، في أثنائه، حياة اجتماعية متناسقة تقوم على ثقافة مدنية خاصة بها، ومن جهة أخرى، قطيعة مع نموذج علاقة الإنسان بمدينته، كنمط فرضه اجتياح الثقافة المهيمنة على نمط آخر من الحياة الحضرية.

إنها بداية عهد من الإنكار السوسيولوجي للفضاء الأصلي ولمجتمعه، وبعبارة أخرى تفكك البنيات الاجتماعية والاقتصادية لما قبل الاحتلال.

وتعتبر هذه الفترة الحديثة في تاريخ العاصمة فترة هامة في هذا العمل، كونها فترة التحولات التي أسفرت عن نشوء الجزائر الجديدة.

فالنظام الجديد يقابله نظام عمراني جديد؛ ولئن كان الاحتلال، على مستوى الوطن، قد أقام شبكة حضرية معتبرة فإنه شيّد، على

مستوى الجزائر مدينته الخاصة، بغرض توطين سكان يختلفون عن سكان المجتمع الأصلي المغلوب على أمره.

سيكون للنظام الحضري، خلال فترة الاحتلال، منطقه السياسي لتطوير المدينة وفق ما يقتضيه تطوير النظام الرأسمالي الكولونيالي؛ فما هو هذا المنطق السياسي والثقافي الكامن وراء ترقية الفضاء الأوروبي حين شُرع في إقامة مدينة كبيرة بشوارعها ورموزها ومرتفعاتها؟ ولماذا حاصر هذا النظام ذلك الفضاء "الأهلي" وابقاه في حدوده التي كان عليها فيما قبل الاحتلال، حيث تتراص البيوت والسكان بأعداد كبيرة ؟ كم تأسف المعماريون وعشاق المدينة القديمة على المدينة التي أصبحت تدعى حي "القصبة" وأصبحت غير معلم أثري مثير لفضول الغرباء!

وبالرغم من حالة البؤس فإنّ من الأهمية بمكان الإشارة إلى وجود حياة اجتماعية وثقافية غنية في حي القصبة وهو الفضاء الأول لاندماج سكان المدينة.

كانت القصبة، بالنسبة لسكانها، تعبيرا عن علاقة الهوية بالمجموعة، مثلما هو الشأن بالنسبة لفضاء الأهالي، وعن الأنشطة الحضرية والانسجام الثقافي الاستثنائي الذي يتجلى في النسيج العمراني وفي مختلف أشكال الصراعات السياسية الوطنية.

لقد عوض السكان فقرهم المادي بالحيوية وبتعميق الصلات الاجتماعية التي طالما أجّجت الحنين إلى الجزائر في نفوس الذين طبعوا عليه إلى الأبد.

وتذهب هذه التناقضات الصارخة إلى حد جعل مدينة الجزائر مسرحا للانتفاضات والمعارك خلال حرب التحرير.

في هذا الجزء، يُنظر إلى حرب التحرير كمرحلة هامة في التحولات التي عرفتها المدينة، في نهاية الفترة الاستعمارية، إذ أن الاكتظاظ السكاني وتضاعف البيوت القصديرية ونزوح السكان بكثافة نحو المدينة كان سببا رئيسيا في تلك الحرب.

ويصبح تحليل هذا المسار التاريخي ضروريا لهذه المرحلة التي طبعت، بعمق، ذلك الفضاء العاصمي كإرث في مظهره وبنيته الرئيسية ومجتمعه.

لقد اصطدم مسار التنمية، المتعثر، بتلك الأسباب التاريخية التي ارتقت بالجزائر من مصاف عاصمة "المدينة ذاتها، إلى مدينة كولونيالية"؛ ويتعلق الأمر بالآليات النفسية والاجتماعية والثقافية الخاصة بالسكان الذين تم نقلهم من مكان إلى آخر على إثر الحرب ثم بعد الاستقلال. وبالفعل؛ فهل يمكن تصور مدينة الجزائر بدون قصبتها أو كمدينة مبتورة عن تاريخها؟ بناء على هذا المعطى فإن الاهتمام سينصب على استعادة هذا التاريخ لإدراجه في سياقه العام كمكسب لدعم السؤال الشائك عن الهوية كمطلب لجميع الجزائريين.

لا مراء في أن الاطلاع على تاريخ الجزائر يظل مطلبا ملحا بالنسبة للكل الذين يرومون الوقوف على جذور المشكلات الحالية للعاصمة.

لقد أظهرت الأحداث بالفعل، أنه بسبب جهل التاريخ أصبحت الجزائر العاصمة، في ذات الوقت قمة للسلطات وبؤرة لتناقضات المجتمع برمته.

الجزائر في سبتمبر 1996

العربي - إيشبودن

الفصل الأول

الجزائر ما قبل الاستعمار...

ميلاد المدينة وتاريخها

خلافا لتقريرات بعض المؤرخين الاستعماريين، فإن مدينة الجزائر تنبثق عن عدة عهود تاريخية ضاربة في القدم إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

فبعد فترة حكم الرومان، التي أعقبها "فراغ" تجاهله التاريخ، كان تأسيس المدينة باسم "جزائر بني مزغنة" على يد أمراء جزائريين من بناة المدن، أمثال بولوغين بن زيري الذي وجدها آهلة بالسكان.

ولفهم معطيات تلك الفترة تم اعتماد المجموعات التالية من تاريخ الجزائر العاصمة:

أولا : تبدأ الجذور من كون الجزائر مدينة رومانية يحكمها القانون اللاتيني؛ ثم تأسيس الجزائر من طرف بولوغين بمعية قبائل بني مزغنة؛ ثم استهداف هذه المقاطعة الصغيرة بالغزو من طرف مختلف المماليك العربية والبربرية في المغرب، من جهة، ومن طرف المسيحيين الإسبان، من جهة أخرى، وذلك في إطار المحاولات الرامية إلى الهيمنة السياسية على شمال إفريقيا؛ جعى ظهور الأتراك واستقرارهم بالجزائر مما أدى إلى تغيير مجرى تاريخ شمال إفريقيا.

أصبحت الجزائر في ظرف وجيز فضاءً مركزيا لسلطة سياسية تشع على المغرب العربي برمته.

غير أن النفوذ المتعاظم لهذه المنطقة أثار مخاوف المسيحيين الذين أصبحت أطماعهم في السيطرة على الجزائر العاصمة اهتمامهم الرئيسي..

ولقد أدى هذا السلوك العدواني إلى جعل العاصمة مدينة للجهاد، فأصبحت منظومة دفاعها على قدر كبير من الأهمية بحيث صارت المدينة قلعة تُنعت "بالجزائر المحروسة".

وبالموازاة مع ذلك؛ فإن القرصنة، التي أبلى فيها الجزائريون بلاء حسنا، عادت على المدينة بثروات كبيرة.

كيف انعكس يا ترى ثراء المدينة هذا على الفضاءات الاجتماعية وعلى السكان والبلد بصفة عامة؟ وهل كان إنجاز الدُّور الفخمة هو الذي أعطى للمدينة اسم "الجزائر البيضاء"؟

بقي نشاط القرصنة وما جلبه من عائدات بمثابة المتنفس الكبير للحياة الحضرية وعنصرا من عناصر الشهرة التي اكتسبتها مدينة الجزائر؛ ولقد أدى ذلك إلى استقطاب العديد من الأوروبيين، الذين وُصفوا "بالمرتدين"، الباحثين عن الثروة. خلال تلك الفترة "التركية" أصبحت الجزائر مدينة عالمية بامتياز وبشهادة مؤرخي تلك الحقبة؛ وذلكبالنظر لتعدد "الأجناس" التي كانت تقطنها وتنوع أزياء الملابس التي يرتدونها واللغات التي يتكلمونها.

ومن المفيد أيضا دراسة نمط حكومة المدينة من خلال حكومة العاصمة وإدارتها وكذا مكانة السكان ودورهم؛ كما يتعين، لاحقا، تحليلُ مختلف الفضاءات الاجتماعية للمدينة وخاصة أحياءها وأسواقها ومنازلها وشوارعا وفضاءات الدفاع عن "الجزائر الحصينة". وستكون النقطة الأخيرة، موضوع تساؤلنا حول تراجع دور المدينة، المرتبط عادة بتراجع نشاط القرصنة البحرية؛ وإذا كان ذلك بالفعل أحد العوامل فإنه لم يكن العامل الوحيد؛ وهكذا سنبحث أيضا العوامل الأخرى الأكثر حسما، وعلى سبيل المثال: هل تجاوزت الأحداثُ ذلك النظام السياسي القائم منذ زمن طويل بعد بلوغ أقصى مستوى من الأزمة؟ وسوف نبحث كذالك عن علاقات الجزائر بالبلدان الأوروبية ونتساءل عما إذا لم تكن مشاريع هذه الأخيرة سببا حاسما مثل تراجع نشاط القرصنة نفسه؟

1. في أصول مدينة الجزائر

يجب التذكير أولا بأن التاريخ الحضري "العمراني" لمدينة الجزائر تاريخ قديم وغني بالرغم من أن الأمر غالبا ما يتعلق بمدن مندهورة.[1] وبالفعل، فإن الشبكات الحضرية، التي نعرفها من خلال هذا التاريخ، تتشكل مع الحضارات وتختفي معها أما في حالة مدينة الجزائر التي كانت تدعى ICOSIUM فلقد كانت حاضرة على الدوام؛ وحتى عندما "انزوت" في العتمة خلال الفترة الفاصلة بين نهاية الإمبراطورية الرومانية وتأسيس الجزائر.

بيد أنه من الضروري، بالنسبة لنا، تبيان أصول هذه المدينة التي يرتبط تاريخها بتاريخ المغرب الأوسط ارتباطا وثيقا، حتى وإن كانت الأكثر أهمية آنذاك، فإن جزءً من تاريخها لا يزال غامضا والواقع أنّ التعطش لمعرفة التاريخ كامنٌ في قلب كل جزائري؛ ولقد وُفق الحكام في فرض احترام أحد الممنوعات، سواءً بالعرف أو بالقانون، ونعني الحيلولة دون البحث عن الحقبة التاريخية بجدية وانتظام ومنع نشرها.[2] هكذا حُرم الجزائريون من هذا الدليل المتمثل في سند الهوية لماض مجيد ولحضارة غنية في أغلب الأحيان.

ونسجل بالنسبة للفترة التركية، على الخصوص، "التغاضي عن التاريخ" أما المصادر الإسلامية "فهي نادرة ومُبعثرة كثيرا إلى درجة يصعب معها تتبع مادتها".[3] يعود اهتمام المصادر الأوروبية بالمغرب العربي إلى الأهمية التي كان يمثلها في نظرهم نتيجة للتحولات السياسية التي عرفها، ابتداء من القرن السادس عشر، ولكون هذا الولع يغذيه "الشغف" الديني والأحكام العنصرية المسبقة بحيث أدى الجهل بالحقيقة أو سوء النية المبيتة... إلى ضلال عدد من مؤرخي تلك الفترة.[4] ففي كثير من الأحيان يبدو لنا التاريخ، الاستعماري، تاريخا يريد المؤرخون فرضه على الذاكرة الجماعية من خلال صور ثابتة نعود إليها بدون التساؤل عن "مصدرها".

وعلى سبيل المثال فإن تاريخ الجزائر في العهد التركي، جعل المؤلفين طيلة الفترة الاستعمارية يصفونه بالقليل والمجهول.[5] وتسمح مثل هذه الوضعية، عندئذ، ببناء شتى الفرضيات التاريخية وكتابته بما يتماشى والتعليمات الرسمية. لم يُشرع في إعادة النظر في بعض الأطروحات المغلوطة، التي اعتُمدت إبان الفترة الاستعمارية، حول إسهام العثمانيين في مدن شمال إفريقيا وفي الحكم على بعض مؤرخي تلك الفترة بأنهم ساهموا في التعتيم على العهد العثماني أكثر مما بحثوا عن الحقائق إلا بعد تصفية الاستعمار؛ والحاصل أن الدراسات حول هذه الفترة، لا تزال نادرة بالفعل ويتوجب القيام بها. ففي مثل هذه الظروف تصبح ندرة الدراسات التاريخية عائقا دون معرفة التاريخ وإدراك التطور الحضري "العمراني" إلا بصعوبة.

في الأصل كانت الأسطورة

في حالة الجزائر، على وجه الخصوص، غالبا ما يتعلق الأمر بالمعطيات التي تشير إلى أحداثٍ تتجاوز الإطار المحلي (الفينيقيون؛ غزو الوندال؛ القس كريسانس إلخ..) وتبقى مدينة الجزائر، مثلما تقدمه المعطيات التي تخصها، عالما سريا لم يكشف بعد؛ ولذا اعتمدت الوثائق المتعلقة بهذه المدينة في المقام الأول على الأسطورة، "الخيال"، ففي البداية كان مفاد الأسطورة أن رفاق هرقل هم أول من قام ببناء أول مدينة تحمل اسمها انطلاقا من كون عددهم كان عشرين: أي "إيكوزي" وهي لفظة يونانية EICOSI.[6]

ومن المؤكد أن البحارة الفينيقين، الذين أغرتهم مزايا الموقع، كانوا أول من أسس مرفقا تجاريا فيها؛[7] ويتعلق الأمر بوكالة تجارية وأحد هذه المرافق التي أنشأها الفينيقيون كانت كمعلم من معالم طريقهم البحرية.

تأكدت هذه الأطروحة لاحقا بعد اكتشاف بقايا خزينة نقود، في سنة 1940، في الحي المسمى "لامارين" LA MARINE؛ وهو اكتشاف سلط ضوءا جديدا على تاريخ الجزائر التي كانت تحمل آنذاك اسم ايكوزيم.[8] ويحيل مثل هذا الاكتشاف على التأكيد، أن الجزائر يمكنها أن تفتخر بماض تليد وتحدد عمرها بأكثر من ثلاثة آلاف سنة. وبالفعل ليس هناك أي شك في اعتماد مفهوم إيكوزيم كون الجزائر ذات أصل فينيقي.[9]

وبالموازاة مع اكتشافات أخرى تشهد على وجود علاقات تجارية بين ايكوزيم وإيطاليا الجنوبية، حيث الجاليات اليونانية في

جنوب بلاد الغال GAULE، لا وجود لمؤشر يحيلنا على شكل وحجم هذه النواة الحضرية الأولى.[10]

ثم أعقب الرومانُ الفينيقيين: فالأوائل قدموا في القرن الأول بعد الميلاد إلى ضفاف الجزائر العاصمة؛ وعليه تُقدم دراسة الطرق التي اعتمدوها، "بالرغم من مرور الوندال والبربر والأتراك"، دليلا على أن المستوطنات اللاتينية أنشأت في هذا المكان مدينة وفقا لمخطط مُعدٌ سلفا، عرف باسم "رقعة الشطرنج".[11]

ففي سنة 25 انتقلت "إيكوزيم"، التي كانت تحت حكم "أوغست"، إلى وصاية ملك موريتانيا، جوبا JUBA وحملت هكذا اسم إيكوزيم ICOSIM ، ولقد ارتقت هذه الأخيرة إلى مصاف المستوطنة المتمتعة بالقانون اللاتيني أي أنها ألحقت إداريا بموريتانيا القيصرية.

ويلاحظ "البكري"، متحدثا عن جزائر بني مزغنة، أنّ "هذه المدينة كبيرة وذات بناءات عريقة (..) وتوجد بها آثار واقبية صلبة البناء تظهر من خلال عظمتها، أنها كانت في فترة مضت عاصمة لإمبراطورية ما". ويحق لأيٍّ كان أن يلاحظ وجود مسارح تتكون من الداخل من أحجار صغيرة من مختلف الألوان تشكل نوعا من الفسيفساء.

كانت المدينة تضم كنيسة واسعة لم يبق منها غير حائط في شكل محراب يتجه من الشرق إلى الغرب ويستخدم هذا الحائط الآن كقبلة شرعية في الأعياد الكبيرة، وهو مزخرف ومغطى برسوم وصور [12]. وعُلم، لاحقا، أنه في القرن الرابع عشر احتلت إيكوزيم من طرف فيرموس FIRMUS سنة 372 ثم تخلى عنها بعد أن أخضعها تماما؛ ثم أعقبت ذلك فترة من الصمت بعد

تفكك القوة الرومانية. وابتداء من القرن الخامس لم يرد ذكر اسم إيكوزيم في التاريخ، وبلا شك أن المدينة، وكانت مساحتها تعادل مساحة الجزائر التركية، قد تعرضت على يد العرب إلى الخراب في القرن السابع عشر حيث هجرها سكانها[13]. وهكذا يركز المؤلف على الدمار العربي ويتجاهل مرور الوندال في القرن الخامس، كما أشار إلى ذلك عدد من المؤلفين، ويبدو أن هذه المدينة تعرضت للنسيان على مدار خمسة قرون، ولم يبق منها خلال هذه المدة الطويلة من الإهمال، غير بعض البنايات الهشة عند تأسيس المدينة الإسلامية[14].

تأسيس جزائر بني مزغنة

في القرن العاشر وفي عهد مملكة زيري بن مناد 971/945 حصل بولوغين، ابن هذا الأمير، على ترخيص بإقامة مدينة حملت اسم جزائر بني مزغنة على أنقاض إكوزيوم. ولقد أعجب بولوغين بالموقع بسبب وجود مجموعة جزر وإمكانية الرسو الطبيعي وغير ذلك من العوامل المحفزة لهذا المؤسس مثل:

- إمكانية استخدام الحجارة الواردة من أطلال إيكوزيوم.
- وجود شوارع.
- ما يتوفر عليه الموقع من مزايا تجعلها مدينة تجارية، إذ لم يكن هناك موقع أكثر ملاءمة منه لتشييد هذه المدينة.[15]

ابتداء من القرن العاشر بلغت المدينة درجة معينة من الرخاء، إذ ازدهرت التجارة وزاد عدد السكان وازدادت أهمية المدينة إلى درجة أصبحت حدودها غير كافية.[16] ويشهد وصف ابن حوقل أيضا على هذه الفترة حين يقول: "أقيمت الجزائر حول خليج وتحيط بها أسوار وهي تحتوي على عدد كبير من البازارات

وبعض ينابيع المياه بالقرب من البحر، وتتكون ثروات سكانها من قطعان الأبقار والأغنام كما كانت تصدر كميات من العسل والزبدة والتين ومواد عديدة نحو القيروان وأماكن أخرى.[17] ولقد جعل هذا الموقع من المدينة موضع أطماع دائمة إلى غاية استقلال الجزائر.

فالمدينة ما انفكت تورط البلد بأكمله بفعل الارتباط الوثيق لتاريخ الجزائر بتاريخ المغرب الأوسط؛ [18] وبالفعل، تعرضت الجزائر لهيمنة جميع الغزاة والطامعين الذين يتنافسون على تلك الأصقاع، في الفترة الممتدة من القرن الحادي عشر إلى القرن السادس عشر. ويتعين القول إن مغرب تلك الفترة كان عرضة للتجزئة وبالتالي للقلاقل السياسية والفوضى.[19]

وانطلاقا من ذلك، تعرضت الجزائر التي لم تكن عاصمة لأي مملكة لمختلف أشكال الهيمنة التي تعاقبت على شمال إفريقيا، إليكم بعض الأمثلة بصفة مقتضبة:

لقد تم إدماج الجزائر في مملكة الحماديين، لتصبح لاحقا تحت سلطة المرابطين، وفي سنة 1185 استولى ابن غانية BEN GHANIA على المدينة بعد الاعتراف بسلطة الموحدين. ثم تمت استعادة الجزائر من طرف المأمون سنة 1230 ليتولى حكمها حاكم حفصي. وفي سنة 1255 تم طرد ممثل تونس من طرف العاصميين الذين انتظموا للعيش بدون وصاية ومستقلين إلى غاية 1277. إلا أنه ابتداء من تلك السنة، استعاد الحفصي أبو زكريا مدينة الجزائر ليلحقها ببجاية وتم الاعتراف بها من طرف العاصميين. وفي سنة 1307 حرر ابن علان IBN ALLAN الجزائر لمدة أربعة عشر سنة، إذ استلم السلطة وقام بطرد السلطات التي تمثل بجاية. ولقد هزم هذا الأخير من طرف ملك

تلمسان أبو حمو الأول الذي ضم الجزائر إلى دولها؛ فمن هم سادة الجزائر والحالة بهذه الدرجة من الغموض؟

إن الطامعين، على تعددهم، لم يكن لديهم الوقت للإقامة طويلا ويبدو أن أسياد الجزائر الحقيقيين كانوا الثعالبة وهم قبيلة عربية من المتيجة تولت طرد الصنهاجيين من السهول. وهكذا استلم أحد رؤساء القبيلة، هو سليم بن إبراهيم، الجزائر طواعية ليبايع الزيانيين والحفصيين فالمرينيين. وكادت الجزائر، خلال هذه الفترة، أن تصبح عاصمة مرتين على الأقل: كانت المرة الأولى، مع ملك الزيانيين أبي حمو، سنة 1378، الذي فكر خوفا من مؤامرات ابنه يوسف بن تاشفين في تحويل مقر حكومته من تلمسان إلى الجزائر؛ غير أنه تخلى عن مشروعه. أما في المرة الثانية فكان الفاعل يدعى زيان محمد الذي استولى على الجزائر في 1438 إثر انتفاضة ضد تلمسان التي جعل منها عاصمة مملكة لم تعمر طويلا.

وهكذا أصبحت الجزائر، مرة أخرى، هدفا لأطماع جديدة إلا أنها هذه المرة لم تكن محل أطماع الممالك المغاربية بل الكاثوليكية. وبعد هذه المحاولة الأخيرة التي تولى العاصميون بأنفسهم مهمة التصدي لها، أصبحت الجزائر شبه مستقلة ذاتيا.

فلقد تشكلت "جمهورية - بلدية" تتولى إدارتها طبقة أوليغارشية بورجوازية تحت الحماية المكثفة للثعالبيين.[21] وبقيت الجزائر في ظل هذا الوضع، مدينة مزدهرة بنشاطها البحري ومبادلاتها التجارية؛ وبالرغم من الرداءة المنتشرة فلقد كان الميناء على قدر كبير من الأهمية: إذ لم يكن يتردد عليه البحارة المسلمون، فقط بل يقصده أيضا القراصنة المسيحيون والسفن الآتية من البندقية، ومن فلورنسا لترسو في موانئها كل سنة.[22]

كما كانت مدينة الجزائر، بالرغم من جميع محاولات الغزو، مدينة يقطنها من 20 إلى 30 ألف نسمة إذ لم تكن مجرد ميناء للتبادل بل كانت أيضا مدينة سيدي عبد الرحمان الثعالبي 1468/1387، ولي الجزائر الصالح المشهور بحكمته وتبحره في العلوم الفقهية، فكان لمساجدها صيتٌ كبير ويعود تأسيس أقدمها إلى القرن الحادي عشر وكذا زواياها التي تعود إلى القرن الخامس عشر.

الجزائر مدينة هامة بالرغم من أن المؤرخين، الاستعماريين، أرادوا حصرها ضمن مصطلح يقلص من أهميتها، مثل تسميتها جزائر البربر أو اعتبارها مجرد مقاطعة ذات مساحة بسيطة.[23]

حين تطرق جاك بيرك J.BERQUE للحديث عن حالة هذه الجزائر، خلال القرن الخامس عشر، نجده يذكر الأنشطة البحرية التي تعكس التجارة المزدهرة ويصف معها المدينة التي شكلت إطارا لحياة متوازنة الأدوار إذ كانت من القوة، السياسية والثقافية في المغرب العربي، حيث لم تكن الأحداث التاريخية والتظاهرات الثقافية تنقص في جميع الحالات.[24]

إنها إذن مدينة يعيش سكانها في رخاء إلى جانب برجوازية حاكمة، تتأرجح بين الخضوع أو التوافق مع المنافسين.

فلم تتح الفرصة للجزائر لتكون على غرار المدن الكبرى في شمال إفريقيا، مقرا لحكومة مملكة، بسبب الطابع المتواضع للمدينة، ولكن الأتراك هم الذين أعطوا المدينة حجما لا يرقى إليه الشك وقد استمرت في هذا الدور المتواضع بالرغم من ظهور بني زيري الذين يقفون وراء منشئها واكتساب أهميتها، قبل أن تبلغ أوج مجدها عندما أصبحت تحت حماية الأتراك. ومنذ ذلك التاريخ، أخذ مصير البلد وشمال إفريقيا منحى آخر.[25]

عهد الجزائر – التركية

يقدم "المؤرخون الاستعماريون فترة الجزائر – التركية على أنها فترة قليلة الوضوح غير أن هذا الأمر لم يمنع العديد من الأعمال من تناولها وهي التي غالبا ما تدور موضوعاتها حول الشعوب البربرية والجزائر تحت الهيمنة التركية.

وكان ذلك من أجل تبرير الأطروحات القائلة بأن الجزائر بلد القراصنة وعرين قطاع الطرق.. ولا تكاد تُذكر مثل هذه الأوصاف عندما يتعلق الأمر بمدن أخرى سواء في شمال أو شرق إفريقيا "تونس، طرابلس، تلمسان، بجاية، القاهرة .. إلخ" وهي المدن التي يحكمها الأتراك، فهل مقارنتها بهذه الأخيرة ، تعني أن الجزائر وحدها كانت تتمتع بوضعية خاصة إزاء الباب العالي؟ وهل هي المدينة التي نجحت أكثر في تطورها تحت الحكم التركي؟

صحيحٌ أن الجزائر هي الوحيدة التي كانت يحكمها داي منتخب؛ أما بالنسبة للمدن الأخرى فالباي يكفي في نظر الباب العالي.

ولقد سمح الاعتماد على "المذكرات" وسرد المغامرات الحقيقية أو المتخيلة للرحالة والقناصلة والتجار وحتى الأسرى، للمؤرخين الاستعماريين، باقتراح ما يستطيعون تقديمه لهذه الروايات؛ وعلى نفس المنوال فإن الخطوط العريضة، المهيمنة في تاريخ الجزائر- التركي، هي المواضيع التالية:

اغتيال الباشا والداي والقحط والسجون والأشغال الشاقة والعبودية ونظام الدفاع عن المدينة وقصف هذه الأخيرة الذي قُدم على أنه مناورة بحرية.[26]

تُحيل هذه المواضيع، بالفعل، إلى كل ما يمكن أن تنتجه مدينة من أعراض وأمراض وما يتعلق بطريقة عيش سكانها ونمط إدارتها. ولقد أصبح هذا المسعى الفكري في كل مقاربة مما جعل تايلارد THAILLARD، عميد جامعة الجزائر سنة 1925، يقول: "إنه بفضل علاقات السفر والأسرى على الخصوص تم إزاحة جانب من الستار السميك الذي كان يلف ماضي البربر، وبالتالي يمكن أن نستشف بعض جوانب الحياة في هذا البلد في القرنين السابع والثامن عشر.

فماذا رأى هؤلاء الرجال في البلد؟ لقد انحصر الوصف على اكتشاف المناظر الطبيعية، أما عن المدينة ذاتها فلا شيء غير ملاحظات مقتضبة، حول الشوارع الضيقة والمتداخلة، سيئة التهيئة، المظلمة والضيقة؛ ولم يتم التطرق إطلاقا للفلول الغريبة التي تكتظ بها الشوارع ولا للشكل الفاتن والجذاب للمساكن المتراصة التي ما انفكت منذ 1830 تلهم العديد من الفنانين وتثير إعجابهم.[27]

ولقد تم تأكيد هذا الحكم القيمي سنة 1960 في مذكرة تنتقد حالة الأبحاث التاريخية الحديثة وإذا كانت هناك كتب ذات قيمة، حول بعض الفترات من تاريخ الجزائر، فإننا لا نملك بعد الكتب الشاملة التي يمكن للجمهور العريض الوصول إليها لتكوين لمحة علمية نزيهة على الأقل عن تاريخ هذا البلد.

يعلل المؤرخون ذلك بنقص المراجع وعدم اليقين وغموض الشهادات حول الماضي.[28] ولقد تم التذكير لحد الآن بالإطار الاجتماعي – السياسي الذي كانت عليه الجزائر قبيل الوجود التركي الذي سيؤدي إلى تحولات جذرية في المعطيات التاريخية للمدينة.

ففي نهاية القرن الثاني عشر كانت مدن ساحل الشمال الإفريقي تعيش في شبه استقلال ذاتي، فقد قامت في شكل دول شبه مستقلة، تتعايش مع القبائل المجاورة.

ومن جهتها انتظمت الجزائر في شكل "جمهورية - بلدية" تحكمها أقلية "أوليغراشيا" بورجوازية على رأسها الشيخ التومي. ولقد حدث هذا التراجع أو "القطيعة" بعد أن مرت المدينة بفترة احتلال وتشنجات مختلفة. ومع سقوط غرناطة "GRENADE " في 1492 استقبلت الجزائر على غرار بقية مدن شمال إفريقيا الوافدين من الأندلس والموريسكيين والمغربين الذين تم نفيهم من إسبانيا، وبذلك أصبحت هذه الأخيرة، إحدى أهم قوتين رئيسيتين في البحر الأبيض المتوسط إلى جانب الإمبراطورية العثمانية.

وضمن منطق استراتيجية الهيمنة، قرر الملوك الكاثوليك، في القرن السادس عشر، إخضاع ساحل شمال إفريقيا؛ وهكذا استولوا على المرسى الكبير بوهران في 1509 وبجاية في 1510 ثم تنس ومستغانم إلخ ..

ولقد أقام الإسبان على ضفاف الساحل الجزائري والتونسي إلا أن محاولاتهم فشلت أمام مرامي خصومهم الأتراك.[29] ووعيا منهم بهذا الخطر، أذعن العاصميون واعترفوا بملك إسبانيا والتزموا بدفع ضريبة سنوية.[30] ولم يكن هذا كافيا عند: ب.نافارو P.NAVARRO ليتأكد من الهيمنة الكاملة، المعبر عنها في بورغوس من طرف الشيخ التومي، إذ قام باحتلال الجزيرة الواقعة قبالة المدينة وبناء قلعة حصينة زودها بالمدافع وأمدها بـ 200 رجل. وقد تحمل العاصميون تلك الشوكة التي غرزت في قلوبهم لمدة 15 سنة.[31]

وبموت الملك فرديناند اعتبر العاصميون أنهم غير ملزمين بالمبايعة التي أدوها وقام التومي بإرسال وفد إلى الإخوة باربروس، عروج وخير الدين، المقيمين آنذاك بجيجل واللذين كانا يتمتعان بالجرأة والبسالة والإقدام والشجاعة الأسطورية.

وسيكون لهذا المسعى، ذي النتائج الاستثنائية، انعكاسات إيجابية على مدينة الجزائر وعلى سكانها؛ بيد أنه لاشيء كان معلنا في الوقت الذي كان فيه ميناء القراصنة البربر، الصغير والجميل، يعرف ازدهارا لافتا.[32]

فما الذي حدث من أمور حاسمة في البلد، بعد استقرار الأتراك، لكي يتم إعلان الوصاية على الجزائر في مطلع القرن السادس عشر أي في 1516؟ يتعلق الأمر، من وجهة نظر سياسية، بالتخلص من الإسبان الذين أقاموا في أرض الإسلام وذلك ما يخدم في المقام الأول سلطة الباب العالي.

لقد حاول عروج، المقيم بالجزائر، إبعاد الإسبان المتمركزين في الحصن قبالة المدينة إلا أنه لم يفلح؛ وعندئذ، قرر القيام بعمليتين سياسيتين:

- إقامة سلطة سياسية قوية ومستقرة فأعلن نفسه ملكا "بالرغم من أن هذا الموضوع لم يكن واردا في طلب سكان الجزائر إلا أنه كان مخاطرة غير محسوبة" للتخلص من الشيخ التومي.

- تحرير بقية المدن الجزائرية المحتلة؛ فلقد حرر كلا من تنس والمدية وملیانة وتلمسان، التي توفي بها سنة 1520، بعد مقاومة شرسة ضد الهيمنة الإسبانية المسيحية.[33]

أما المنجزات التي تخص مدينة الجزائر؛ فبمجرد إقامة السلطة الجديدة أصبحت عاصمة وعرفت تحولات هامة جعلت منها مدينة مشهورة وحصنا منيعا. وابتداء من السنة الأولى لإقامة الأتراك شرع

في بناء قلعة جديدة هي "القصبة" ثم تشييد المتاريس والأسوار الجديدة للذود عنها ولحماية سكانها الذين تزايد عددهم أكثر.

وشرع خير الدين، بعد وفاة أخيه، في إقامة دولة الجزائر؛ فلقد كان ينظر إليه أنه يتوفر على صفتين أساسيتين: إرادةٌ صعبة الترويض وروح سياسية نقية "ويعتبر خير الدين مؤسس دولة الجزائر" المنتصر على جميع خصومه حيث دمر حصن الجزائر سنة 1529 واستخدم جزء من مواده للربط بين طرفي المرسى.[34] وكان يكفي أن يأمر خير الدين بربط الجزيرة بالياسة حيث يوجد الحصن لكي تكتمل المعجزة؛ ومنذ ذلك اليوم، أصبحت جميع سفن العالم تمر قبالة الجزائر.[35] ولإقامة دولته أمام هجمات خصومه وبقرار عبقري ربط مصيره بالإمبراطورية العثمانية[36]

ثم أشاد خير الدين بالسلطان سليم الأول الذي أدرك بسرعة أهمية موقع الجزائر في البحر الأبيض المتوسط وتسلم من اسطنبول لقب الباشا "الباي" مع 2000 رجل مجهزين بالمدفعية وأربعة آلاف متطوع يتمتعون بمزايا الانكشاريين؛ وصارت الجزائر آنذاك مقاطعة عثمانية "تركية" وشبه قاعدة عسكرية للباب العالي في المنطقة الغربية من البحر الأبيض المتوسط؛ فكيف أصبحت عندئذ مدينة الجزائر التي منحت اسمها للبلد بكامله؟

يجدر التذكير، لإدراك إسهامات هذه الوضعية الجديدة للمدينة، بتطور هذه الأخيرة خلال القرون الثلاثة التي استغرقها التواجد التركي وهو تواجدٌ شبه نسبي إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الاستقلال الذي تحقق بسرعة والذي من خلاله مارست الجزائر سلطتها أثناء تلك الفترة سواء في الداخل أو في العلاقات التي كانت لدولة الجزائر مع بقية البلدان. سنستعرض، أولا، وضع نظام حكم للمدينة ثم نأتي إلى تلخيص ممارساته ووظائفه الحضرية لاحقا.

2. حكومة المدينة في العهد التركي

ينطلق التمثيل الشامل المنبثق عن نظام الحكم، خلال العهد التركي، من بنيات ممركزة للسلطات السياسية على أعلى مستوى في الدولة إلى غاية 1830. بينما مُنحت صلاحيات واسعة على مستوى المقاطعات للبايات ونوابهم.

كان البايات يتمتعون باستقلالية كاملة في رسم سياساتهم المحلية؛[37] غير أنهم لم يكونوا يتدخلون في شؤون القبائل وكانت أكبر واجباتهم إزاء السلطة المركزية منحصرة في جمع الضرائب؛ ومهما وصف بالجمود، فإن شكل حكومة الجزائر، خلال ثلاثة قرون من الوجود التركي، تميز بوقوع أحداث سياسية واقتصادية كانت وراء حدوث عدة تغيرات؛ مرتبطة أساسا بإرادة سياسية في الاستقلال جرى التعبير عنها بطريقة ما من طرف دولة الجزائر إزاء الباب العالي. وانطلاقا من ذلك وقعت تغيرات أساسية في الوضعيات السياسية للذين تولوا حكم المغرب الأوسط.

النظام السياسي للحكومة

يمكن أن نميز خلال هذه الحقبة من التاريخ ثلاثة مراحل في تطور نظام حكومة الجزائر، كعاصمة مستقلة سياسيا، ففي هذه

المراحل المتعاقبة كان هرم السلطة يتكون من البايات والأغاوات والميليشيات والدايات.

أ ـ كان الباي[38] يُعيَّن من طرف السلطان ويتصرف كملك حقيقي للجزائر ويعيش في قصر الحديقة.

ساهم البايات في إثراء مدنهم، ليس فقط من خلال نشاط القرصنة البحرية، بل كان لنفوذهم دور كبير في إقامة دول في المناطق البربرية؛[39] فلقد بسطوا مفهوم ضبط الحدود، التي يتحركون ضمنها، كما أدخلوا فكرة السيادة الوطنية.[40]

ب ـ الأغاوات والميليشيات: في العصر الذهبي للقرصنة، خلال القرن السابع عشر، كانت الجزائر مدينة غنية وتجارية بامتياز تحتضن بين 100 و150 ألف نسمة وهو رقم لم تبلغه من قبل أبدا.[41]

وعندما بلغت هذه المدينة أوج قوتها واكتسبت سمعة دولية، كدولة قوية، تحررت من وصاية الباب العالي؛ وتولى الأوجاق « ODJAQ » (ميليشيات السلطة) وطائفة الرياس مقاليد "الحكم"، برفضهم التواجد تحت إدارة موظفين مؤقتين.[42] وانطلاقا من هذا المطلب، ستولد سلطات جديدة في الجزائر. وهكذا تم استبدال البايات بالأغاوات والميليشيات ابتداء من 1659. وقد دامت هذه الصيغة اثنتى عشرة سنة فقط. وابتداء من 1671 فُرضت سلطة جديدة، استمرت هذه المرة إلى غاية الاحتلال الفرنسي، ويتعلق الأمر بالداي المنتخب من طرف الديوان كقائد أعلى. ولقد وُصف هذا الحدث بالانقلاب الهادئ، الذي أحدث تغييرا كبيرا، سياسيا ومؤسساتيا،[43] بحيث أصبحت الوصاية على الجزائر مُستقلة في تسيير شئونها استقلالا تاما.

وابتداء من تلك الفترة بدأ سكان المغرب الأوسط يسمون أنفسهم بالجزائريين[44] وهكذا؛ فإن علاقة التبعية لاسطنبول لم تعد تظهر إلا بصفة رمزية من خلال طقوس تقديم الكفن أو الهدايا عند تعيين داي جديد؛ ويُذكر أن أتراك الوصاية لم يكونوا سوى مجرد أتباع للسلطان عن بعد.[45]

وفيما يلي توزيع الألقاب ونظام حكومة دولة الجزائر في ذلك العهد:

السلطة المركزية وتتمثل في دار السلطان، وتشمل الجزائر وضواحيها ويتولى الداي الإشراف عليها. أما بقية أنحاء البلاد، فكانت مقسمة إلى ثلاث مقاطعات هي: قسنطينة؛ المدية؛ ومعسكر، ثم وهران. ويوجد على رأس كل مقاطعة، مقسمة بدورها إلى أوطان وقواعد، حاكمٌ يُدعى الباي يحكم الإقليم الذي يُشرف عليه ويتمتع بصلاحيات واسعة.

ومن جهة أخرى كان هذا الأخير يُنصح بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للقبائل وهي نصيحة تندرج في إطار إستراتيجية السلطة التركية، الحريصة على تفادي الانتفاضات، إلا إذا كانت تخدمها وإلا فإن عواقب ذلك ستكون وخيمة على تطور المجتمع الجزائري.

وبالفعل فإن الاضطرابات بين القبائل وإهمالها من طرف السلطة المركزية، رهنت البلد في حالة من التخلف طيلة ثلاثة قرون التي استغرقها الوجود التركي.[46]

كانت دار السلطان، التي تشمل العاصمة ومقاطعاتها، إقليمًا منظما خاضعا للسلطة المباشرة للداي، القائد الأعلى للدولة، الذي يعين المأمورين الرسميين لمختلف مهام الحكومة الإقليمية والإدارة. ففي العاصمة يقع مقر الحكومة والمؤسسات الوطنية،

مثل تلك التابعة للداي؛ والديوان؛ وأعضاء الأوجاق؛ وطائفة الرياس؛ والخزناجي؛ والخوجة الخ... وتتشكل من الأتراك فقط.

دام هذا النوع من "التسيير العسكري الذاتي أكثر من ثلاثة قرون بدون أن تظهر نقائصه التي يبتهج الكثير من المؤرخين الأوروبيين بنسبتها إليه".[47] ولا يبرز هذا الطابع العسكري لحكومات الدايات بالجزائر من خلال التنظيم السياسي، فحسب، بل من خلال الحالة الفكرية لقادته أيضا.

لقد أعطى خير الدين لدولة "الجزائريين"، مثلما يدعوها أتراك الجزائر، تنظيما ذا قاعدة عسكرية ظل على حاله ولم يتعرض لتغييرات عميقة إلى غاية الاحتلال الفرنسي.[48] وهي تلك الروح بالذات التي نجدها نوعا ما في طريقة حكم المدينة نفسها.

حكومة المدينة

يكمن توضيح ماهية حكومة المدينة من عناصر الإجابة على السؤال التالي:

هل يمكن التعرف، من خلال هذا النمط من الحكم، على السياسة التي تؤثر في تطور المدينة والنمط الذي يترجم في عدم الملاءمة ويتحول إلى عائق؟

لقد تم حكم الجزائر على أساس إقصاء مواطنيها سواء على الصعيد السياسي الذي بقي حكرا على الأتراك وحدهم أو على صعيد مساهمة السكان في القرارات الكبرى المتعلقة بتسيير المدينة. ولقد تواصل هذا الإقصاء، لاحقا، لكن بصورة أكثر نعومة وتحت أشكال مختلفة تكررت طيلة الحقبة الاستعمارية؛ وبالفعل، ففي ظل الاستعمار كان الأمر يتعلق بالتنكر التام للعنصرين الحضري والأصلي أي: إنكار المدينة الأم، من خلال

تدمير الأحياء، وإنكار السكان المسلمين، من خلال عدم الاعتراف لهم حتى بماضيهم الحضري، ولقد أدت هذه الممارسة إلى ظهور التخوم الحضرية بفقرائها وبيوتها الهشة التي لم تعرفها الجزائر إلا بعد مضي قرن من الوجود الفرنسي.[49]

فالصور التي نعرفها عن المدن "التركية"، في شمال إفريقيا، هي عموما مدن قراصنة وعرين قطاع الطرق وغيرهم من لصوص البحر أو هكذا يقدمها لنا المؤرخون على أنها لامدن، في تطور دائم، يسيرها أجانب وإدارتها غير منظمة والقمع هو الأداة الوحيدة للتسيير الحضري.

يتعلق الأمر، في هذه الحالة، بمعرفة كيف استطاعت مثل تلك الحالات الفوضوية أن تستمر أربعة قرون وأن تسمح بنمو تلك المدن التي عرفت الجزائر خلالها، على سبيل المثال، بعض الفترات الاستثنائية؛ ومن المهم، أيضا، معرفة كيف استطاعت الجزائر أن تجذب السكان من داخل البلاد ومن البلدان المجاورة للبحر الأبيض المتوسط في حدود 50% من تعداد سكانها.

فالتاريخ الاستعماري الفرنسي، يميل بطبيعة الحال، إلى اعتماد السوداوية في وصف الأوضاع الداخلية في البلدان التي يزعم المحتل الجديد، القيام ببسط السلم والرفاهية الرومانية في ربوعها. ويلاحظ هذا الاتجاه خصوصا في الجزائر، مهما كانت النوعية الحقيقية للأعمال التي كرست للجزائر التركية في القرن التاسع عشر.[50]

لقد كانت تلك الفترة فترة نشاط القرصنة الذي تعيش عليه الجزائر، وعلى وجه الخصوص، فترة ثراء من يمسكون بزمام السلطة والمدينة؛ وكانت أيضا هي الفترة التي عرفت فيها المدن توسعا معتبرا ولعبت دورها كمراكز اقتصادية هامة. فلقد كان

الأتراك ينظمون تواجدهم انطلاقا من بعض العواصم وكانت بعض تلك العواصم عبارة عن مجموعات سياسية تهتم بتحصيل الضرائب لدى القبائل وكان البعض الآخر منتظما في شكل مدن قرصنة تدين ظهرها ببساطة للمناطق الداخلية للبلد.[51] كانت الشبكة الحضرية الموجودة آنذاك تستجيب للحاجيات الخاصة لإقامة الأتراك. فالمدن كانت أبعد من أن تحظى مظهرا سيئا أمام المدن المتوسطية الأخرى لكونها، وإلى غاية القرن الثامن عشر، احتفظت بعدد مماثل من السكان.

وبحصى في بجاية، التي كانت في حالة انحطاط في القرن السادس عشر، وجود ثمانية آلاف ممتلكة إقطاعية وحوالي ثلاثين ألف نسمة؛ أما مدينة الجزائر فقد بلغ عدد سكانها تقريبا 150 ألف نسمة في منتصف القرن الثامن عشر. لقد كانت مدينة الجزائر بالفعل مدينة رائدة تتفوق على بالرمو وروما ومرسيليا والبندقية ولا تتفوق عليها غير مدينة نابولي، في المتوسط الغربي،[52] وإلى غاية القرن التاسع عشر، وبالرغم من الانحطاط السائد، كان لبعض المراكز الصغيرة مثل جيجل والقل وتنس وشرشال ورشاتها للصناعات البحرية؛ كما كانت أرزيو ووهران ورشقون تصدر نحو أوروبا كميات كبيرة من السلع.[53]

للتذكير؛ فإن الجزائر كان لها، ضمن التعظيم التركي، مكانة جد متميزة من حيث وضعها كعاصمة للجهاد الأمر الذي يميزها كمدينة رمز ويفسر بالتالي الطريقة الشاملة في تسييرها.

لقد كانت الجزائر مدينة للجيش الانكشاري، أي مدينة العسكريين الذين أنشأوا الإيالة. وكان يوجد بها ثمانية ثكنات وعدد كبير من العسكريين الذي يبلغون أحيانا 20 ألف رجل؛[54] ولم

يكن للمدينة إلا أن تتخذ طابعا عسكريا، كونها موضع تنظيم، حيث نجد كل شيء مجندا ومضبوطا ومغلقا مثل الثكنة تماما.[55]

كانت مدينة الجزائر، التي تحتل مكانة استراتيجية، مركزا تجاريا مما عرضها للعديد من عمليات القصف وأغرقها في حالة حرب شبه دائمة. وكرد فعل أصبحت مدينة للجهاد وذلك ما يبرر الأعداد الكبيرة نسبيا للجنود الانكشاريين فيها. وكانت الجزائر أيضا مدينة دينية حيث تستلهم جميع الأعمال من الإسلام.

لا يمكن إدراك الأسباب العميقة التي تبرر السلوكات اليومية لسكان الجزائر إذا ما تجاهلنا العنصر الديني زيادة على أن الإسلام هو دين حضري.[56] تقف هذه الظروف السياسية الاجتماعية المميزة للوجود في المدينة وراء تحوير تنظيم الحكومة الحضرية القائم على الطاعة والصرامة والطقوس. تلك المميزات النوعية وما ترتب عنها من تنظيم هي التي جعلت المؤرخين لا يتوصلون إلى تصنيفها ضمن فئة المدن الحضرية الكلاسيكية؛ وكذا بالنسبة للباحثين الذين أعطوا أحيانا الانطباع بأنهم بصدد الحديث عن نمط من اللامدينة وأمام نموذج لا حضري.[57]

الحقيقة أن النظام الاجتماعي الحضري، الذي طور بالجزائر، قد خلص إلى تطوير نفسه وجلب، برأي جميع الملاحظين في تلك الفترة، حالة من الارتياح لأصحابه؛ أما بالنسبة لحكومة المدينة فإننا نميز مستويين مختلفين، ومتكاملين، ممثلان للمواقع المختلفة من طرف المجموعات الضاغطة في هرم السلطة السياسية وهما:

المستوى السياسي أي الذين يتولون إدارة المدينة أو الطبقة المهيمنة وما دونها ممن يتولون التسيير والإنتاج (المستوى الذي يتكون من تشكيلة من المستويات الأخرى حسب تدرج تحدده الممارسة والضرورات).

ويتكون المستوى الثاني من ميليشيا الإنكشاريين (المستخدمون العسكريون والسياسيون) وأعضاء طائفة الرياس القوية. كما أن الدولة ذاتها، تتكون من تحالف مدعوم بالمصالح المشتركة بين الإنكشاريين والرياس.

وبالنسبة للجزائر التركية فإن المعاينة الأولى للمؤرخين هي إقصاء السكان الأصليين من الأنشطة السياسية للإيالة، سواء في الوظائف السياسية أو في المناصب العليا للإدارة الحضرية، ويعود هذا الإقصاء لخاصية السياسة التركية في الجزائر والتي تقوم على التمييز في توظيف أفراد الجيش الانكشاري؛ إذ لا يمكن مراقبتهم، والحالة هذه، من التسيير العسكري الذاتي على حد تعبير جاك بيرك؛ وباستثناء أتراك الأناضول تم إقصاء الجميع، بمن فيهم الكراغلة، (الجزائريون المنحدرون من أب تركي).

وهكذا فُرض منطق الإقصاء حيث لا يمكن شغل المناصب، المسماة بالهامة، إلا من قبل الأتراك حيث يتقاسمون خاصية السلطة مع أعضاء طائفة الرياس؛ لكون الدولة هي من يتولى مراقبة الميدان السياسي وتسيير المدينة بصفة كلية. وإلى غاية القرن التاسع عشر حافظت دفعات الجيش الإنكشاري على طابعها التقليدي ضمن الطبقة المهيمنة. ويفسر هذا الواقع مدى الاهتمام بالمحافظة على الطابع التركي للمؤسسة العسكرية بالمدينة. ففي الجزائر يُفسَّر اقتصار التجنيد على الأناضوليين بإرادة العنصر التركي بسط اليد على السلطة.[58] تضم هذه المجموعة جميع من يمارسون السلطة السياسية ويمسكون بزمام الإدارة ويسهرون على حفظ النظام والأمن؛ ويوجد في مرتبة تحت الطبقة المهيمنة عدد من المجموعات الاجتماعية تتولى قطاعات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والإدارة الحضرية؛ ويتصدر مقدمة هذه المجموعات

بعض العلماء الذين يُمارسون الأنشطة الاجتماعية (في المؤسسات الدينية والتعليم والقضاء الخ..). ويستمد هذا الفريق وحدته من الأنشطة المرتبطة بالشأن الديني والعلمي وبإدارة شؤون القضاء ونشر الثقافة.[59]

وللعلم، فإن موارد هذا الفريق غالبا ما تأتي من العائدات التي توزعها الجمعيات ذات الطابع الديني والخيري ومن تبرعات شخصيات الدولة وممثليها؛ وتنتشر هذه المجموعات في الجزائر ويتحرك أفرادها ضمن نشاط العلماء وهم يمثلون حوالي 6 بالمائة من مجموع السكان النشيطين، من الذكور، وتعتبر هذه النسبة كبيرة بطبيعة الحال.[60]

وبالإضافة إلى أنشطة العلماء المرتبطة بالدين والمعرفة، كان هؤلاء بمثابة الوسطاء الطبيعيين بين الرعايا وبين السلطات بوصفهم تابعين لها حيث كانوا يتولون دور العون القضائي الضروري في مجال العدالة وكذا الحكم، وتفسير مسائل الشريعة.

كيف كانت تضمن آنذاك الوظائف الحضرية في الجزائر في ظل التمييز المعيش والمفروض في ممارسة السلطة السياسية؟

هذا سؤال من الأهمية بمكان إذا اعتبرنا تعريف أو(ترتيب) المدن ما قبل الاستعمار في المغرب العربي مقارنة بوضعيات المدن الأوروبية، من جهة، وبنموذج الإدارة الذي عرفته الجزائر، من جهة أخرى، والذي لم يكن ظاهرا للمؤرخين الاستعماريين في جميع الحالات؛ فلقد قرر هؤلاء المؤرخون أن إدارة الجزائر كانت خارج أي منطق عقلاني معروف في الفضاء الحضري الأوروبي.

أما ما يتعلق بمسألة الترتيب النظري فهناك خبيران في مدن ما قبل الاستعمار في المغرب العربي يتفقان وهما:

السيد زغال ZGHAL الذي يرى أن المدن الكلاسيكية في المغرب العربي تقع بين نموذجين متناقضين: نموذج المجموعة الحضرية المستقلة التي تحيل على البلدية الغربية في القرون الوسطى؛ ونموذج المدينة الملكية القريبة من شكل المدينة الصينية.[61]

ويعتبر السيد ريمون RAYMON، الذي يُشاطره هذا الرأي، أن هذه "المدن تختلف في نفس الوقت عن المدن القديمة التي غالبا ما تم اعتبارها تجسيدا للمثالية في التنظيم الحضري ومدن القرون الوسطى التي سمحت مؤسساتها بالتطور نحو النظام البلدي"؛[62] وهكذا فبالنسبة لهذا وذاك، إن نموذج الأداة، الذي يبرز في المدن العربية، يمكن موقعته على النقيضين.

إلا أن طابع اللامدن، أو انعدام الصفة الحضرية الذي يُنسب لهذه المدن، فهو غير مؤسس إذ أن من الصعوبة بمكان القبول بفكرة انحطاط متواصل وبدون انقطاع طيلة أربعة قرون وأن هذه التأكيدات عن "اللامدن" هي في تناقض مع ما يكشفه علم الآثار وتاريخ المدن.[63]

وبالفعل، كما سنرى، فلقد كان المكلفون الرسميون والمعنيون بالأمر هم من يتولى الوظائف الحضرية بطريقة مُرضية، وبعبارة أخرى، لم تكن الإدارة البلدية وحدها من يتولى مختلف المهام التي كان يشارك فيها الحرفيون والمجموعات الإثنية وجمعيات الأحياء.

وكان المكلفون بالشؤون الحضرية، على قلتهم، يظهرون بعض القصور والعجز الذي لم يكن مطلقا ولا شاملا مثلما نتصور "إن رداءة معلوماتنا، بهذا الخصوص، هي بلا شك المسئولة عن النظرة التي اعتمدها المؤرخون عن المدن العربية".[64]

إدارة المدينة

لقد كانت إدارة مدينة الجزائر تحت سلطة الخزناجي، (أمين الخزينة وزير المالية)، يساعده مكلفون بالمهام الرئيسية التقنية أو القطاعية حسب ضرورات سير الهيئة الحضرية. وكان شيخ البلد، المعين من طرف السلطة المركزية، يتولى مهام الشرطة ومراقبة الصناع والحرفيين فهو مكلف، ظاهريا، بكل ما يتعلق بترميم البيوت (نظافة وصيانة المباني الحضرية وبمسؤوليات حضرية هامة) يؤكدها موقع مكتبه الذي يقع في قلب المدينة؛[65] ويتولى شيوخ البلد، الذين هم نواب الأغا والأمناء، وظائف محددة مثل مراقبة الأسواق والأسعار وتسيير الينابيع ونظام الشرطة والمزوار.

إلى جانب هؤلاء المكلفين، الرسميين، تتدخل سلطات أخرى. هكذا تؤطر السلطات السياسية النشاط في جميع المسائل المتعلقة بسير المدينة، كونها مسئولة عن حفظ النظام، إذ من بين مهام الحكومات الاهتمام بجميع المشاكل في العاصمة حيث تمارس سلطاتها والتي كانت تؤدي أحيانا إلى خلق مشكلات قد تصل إلى حد إثارة الاضطرابات.[66]

وبالإضافة إلى هذا النوع من التدخلات هناك تدخلات القضاة في المحاكم الذين تعرض عليهم جميع القضايا ومن بينها كل ما يتعلق بالإدارة الحضرية؛ فلئن لم يكن للمدينة هيئات "بلدية"، بالمفهوم الغربي للمصطلح، فإن مختلف الجمعيات (الطوائف) تشكل أدوات تسيير حقيقة وتلعب دورا نشيطا في الحياة الحضرية؛ ونذكر منها، على سبيل المثال، جمعيات الحرفيين التي تضم جميع السكان النشيطين والتي كان يبلغ عددها 33 جمعية في

المدينة ويتمثل هدفها الأول في مراقبة النشاط المهني وتحديد الأسعار ومراقبة نوعية المواد وتسوية الخلافات بين الأعضاء.

وبفعل التمركز الجغرافي للحرف أرغمت هذه الجمعيات على ممارسة نشاطها في الشارع حيث تقع؛ كون العمل الإداري إلى جانب حفظ النظام يمثل جانبا مهما مما يسمح للسلطات بمراقبة سكان المدينة بما في ذلك حفظ النظام الذي يشكل حاجة لإدارة خاصة؛ وبموازاة ذلك تنتظم المجموعات الإثنية في شكل كيانات شبه إدارية.

فلقد كانت الجزائر تتضمن، قبل سنة 1830، ستة جمعيات للبرانية لكل واحدة رئيس (أمين) معترف به من طرف الحكومة يتولى الوساطة بين أفراد جاليته وبين السلطات؛ وكان الأمناء يتولون مهام شرطة مجموعتهم المسئولة عن الأمن العام ويمتد هذا النوع من التنظيم الاجتماعي والحضري للمدينة إلى الأحياء، مع العلم، أن تقسيم المدينة إلى أحياء مغلقة، هو شكل تنظيمي عارق في القدم.

ومن جهة أخرى كانت الجزائر تتوفر على حوالي 50 حيا، تدعى الحومة، ويتراوح عدد السكان فيها بين 1000 و2000 نسمة أي من 200 إلى 400 عائلة؛ وتلعب الأحياء دور المقاطعة الأولى للمدينة.

وعلى غرار جمعية الحرف والجمعيات الإثنية، كانت الأحياء بمثابة هيئة وساطة أساسية بين السلطات والسكان؛[67] وكان للحي وزن مضاد لدور السلطة المركزية في إدارة المدينة.[68] وبصفة عامة، لقد كان الأمن والنظام هما الاهتمام الرئيسي للسلطات والسكان في المدينة؛ أما الهيئات والمجموعات فلقد جعلتا من الأمن والنظام هدفا جزئيا أو رئيسيا؛ وكان المزوار يضمن

وظائف الشرطة فيما يتعلق بالسكان الأصليين ويُمارس صلاحياته بالليل كما بالنهار بمساعدة حرس خاص.

ومن جهة أخرى يتولى ضابط تركي، برتبة "آغا الكل"، قيادة مجموعة تعمل بالليل؛ وكان شيخ البلد، أيضا، يقوم ببعض مهام الشرطة.[69]

وهكذا؛ فاستتباب الأمن من مهام مختلف المستويات ومختلف الفاعلين سواء المكلفين أو المسئولين معنويا عن الجاليات أو الأحياء؛ ويرتكز النظام القائم في حكومة المدينة، بصفة أكبر، على منطق الولاء أو الانتماء للمجموعة المركزية؛ وهذا ما يطور، فيما يبدو، روح التضامن أكثر مما يذكي النزاعات؛ كما أن حفظ النظام اليومي كان يتم بطريقة ملحوظة كون الجزائر كانت مصنفة كمنقطة مضطربة بامتياز بالرغم من أن المسافرين يرونها مدينة يسودها الأمن.[70]

ويؤكد شالر SHALER (القنصل الأمريكي)، وهو أحد العارفين بخبايا الجزائر والمتتبعين لشؤونها، سيادة الأمن ويكذب المؤرخين الاستعماريين إذ كتب: من المحتمل أن لا توجد مدينة، في العالم، بها شرطة أكثر يقظة من الجزائر حيث تقل جرائم المتقاضين بالقانون ويضمن أمن الأشخاص والممتلكات؛[71] وفيما يلي كيفية قيام المصالح العمومية بمهامها، علما بأن في هذا الميدان، تعد الجزائر الأكثر فعالية ومهارة:

لقد كان تنظيف المدينة يتم بطريقة متقنة فهناك من يُدعى "قايد زبال" وهو مكلف خصيصا بالسهر على نظافة المدينة. فالسكان ملزمون بإلقاء نفاياتهم في حفر صغيرة بحجم سمك الجدران ثم يتولى جمعها، كل صباح، أشخاصٌ يمرون بأحمِرَةٍ تحمل على ظهورها السلال ويقومون بتفريغ الحفر ونقل نفايات المدينة؛

ويتعرض السكان الذين يتهاونون إلى غرامات مالية؛ ومن جهة أخرى تتولى الدولة مهام التهيئة وتوزيع المياه ومد القنوات وبناء ينابيع مياه الشرب وصيانتها.[72]

وعلى سبيل المثال، فإن مسألة المياه وتوزيعها، كانت أكثر تنظيما عنها في أيامنا هذه بمدينة الجزائر؛ ذلك أن الأتراك هم أول من "قام بإيصال الماء في الجزائر"، فقد أمدوا المدينة بشبكة من القنوات موصولة بينابيع ساحل الجزائر لتلبية الحاجيات الاجتماعية؛ ولقد كانت القنوات الثلاث، الأقدم، توفر في القرنين السابع والثامن عشر 1.500.000 لتر في اليوم وهو ما يعتبر نسبة عالية آنذاك، أي ما يعادل 50 لترا في اليوم، لكل فرد، ولقد فرضت السلطات على إثر الهزات الأرضية التي وقعت في سنوات 1715 و1755، على سكان المدينة، القيام بتهيئة صهاريج في البيوت؛ ولقد قُدر، في سنة 1840، وجود 1100 صهريج لحوالي 2000 مسكن في الجزائر متوسط سعتها 70 مترا مكعبا.

كان توزيع المياه يتم انطلاقا من الينابيع العمومية البالغ عددها حوالي 100، على الأقل، [73] وبناء عليه فالمعاينة بخصوص تسيير حكومة مدينة الجزائر، بشهادة الجميع، تفيد أنه كان تسييرا فعالا.

أما خارج الإطار التنظيمي المعروف في المدن الأوروبية، آنذاك، فكان تسيير مدينة الجزائر يقوم على تنسيق الأعمال بين السلطة السياسية والجمعيات الحرفية ومشاركة الأوقاف؛ وكانت هذه التدخلات، أو المساهمات من مختلف الأسلاك أو السلطات، بمثابة الإدارة الفعلية أو المصالح العمومية في الوقت نفسه.

يشجع هذا الحل الأصيل، حلولا أخرى، حتى لو كان الأمر لا يتعلق بمصالح البلدية في حد ذاتها؛ ويقف تحليل تاريخ المدن التركية وراء إصدار الحكم التالي:

"تقوم إدارة هذه المدن على توازن ذكي وعرقي: سلطة الموظفين يقابلها نفوذ الأعيان ومصالحُ عمومية بسيطة ومختصرة تستجيب، بشكل دقيق، لاحتياجات نسبية دائمة؛ ولقد تعرض هذا التوازن إلى تحوير عميق عند وصول الأوروبيين الذين يفتخرون بحضارتهم وتنظيمهم، لذا لم يكونوا على استعداد لتبني العادات المحلية، بل عقدوا العزم على إقامة نظام حضري جديد في أقرب الأجال."[74]

هذا هو القانون الخاص بمدينة الجزائر وبظروفها كمدينة للجهاد حيث يهيمن الطابع العسكري الذي فرض هذا النمط على حكومة المدينة؛ وبالفعل، فالمتدخلون كانوا من جميع الهيئات فمن جهة تبحث السلطة المركزية عن ضمان الأمن ومن جهة أخرى تدافع جمعيات الحرفيين والتنظيمات الأخرى، التي ولدت من رحم الإقصاء من القرار السياسي، عن مصالحها؛ وهكذا نشأ نظامٌ اجتماعي حضري خاص بحكومة المدينة. وسنتطرق الآن لمسألة سكان الجزائر وصعوبة تقدير عددهم.

سكان المدينة

لا نملك أية تقديرات عن سكان الجزائر غير تلك التي اعتمدها مختلف المؤرخين في تلك الفترة؛ والتي غالبا ما يتم اعتمادها لاحقا في الحقبة الاستعمارية تبعا لحاجيات استخدامها؟

ويختلف عدد السكان بالفعل مع الأحداث الاجتماعية – السياسية (مجيء الأتراك وتطور التجارة) ومع الكوارث الطبيعية

(الزلازل والأوبئة..) هذا من جهة، ومن جهة أخرى تبرز أرقام الحقبة التركية هذا المتغير وهي نادرا ما تعني مجمل سكان البلاد غير أنها عديدة ومتغيرة بالنسبة لسكان مدينة الجزائر؛ فالمعطيات المقدمة والمستعملة بعد الغزو الاستعماري غالبا ما كانت متناقضة في التقديرات في حين يوجد إجماع بخصوص عدد سكان العاصمة المحدد بـ30 ألف نسمة في سنة 1830.

ما انفك عدد سكان المدينة يتزايد، خلال الفترة التركية، بالرغم من العراقيل؛ ولقد بلغ هذا التزايد إلى درجة أن البناءات احتلت جميع الفضاءات الحرة.[75] وكانت عمليات البناء تتم حتى على الطرقات التي تحولت إلى ممرات عديدة وشوارع مسقوفة؛ فكانت هناك عمليات بناء أفقية لبيوت من ثلاثة طوابق في العديد من الحالات. وبالفعل، إذا كانت الجزائر تحتضن من 20 إلى 30 ألف نسمة، خلال القرن الخامس عشر، وحوالي 1000 إلى 2000 مسكن فلقد اصبحت تضم 12 ألف مسكن و60 ألف نسمة ابتداء من 1612 (HAEDO).

ومن جهة أخرى، وخلال فترة الازدهار الكبير للمدينة، كان عدد سكان الجزائر يتراوح بين 100 و150 ألف نسمة وعدد مساكنها حوالي1500 مسكن؛ بيد أنه في بداية فترة الانحطاط التي يُرجعها جاك بيرك J.BERQUE إلى 1789 جزائر القرن الثامن عشر، لم يكن هناك أكثر من 5000 مسكن و50 ألف نسمة.[76] وبالرغم من أن هذه الأرقام ذات طابع عام فإنها تقدم الدليل على أنه خلال الفترة التركية عرفت المدينة تدفقا كبيرا للسكان. وأن عددهم كان أكثر من 12 ألف حسب ما تم إحصاؤهم حوالي سنة 1834.

ويفسر الانخفاض الديمغرافي غالبا، بانتشار الأوبئة إلى جانب الانحطاط الذي عرفته المدينة قبيل الغزو، في سنة 1830، وهي الفترة التي لم يكن يقطن الجزائر إلا حوالي 30 ألف شخص. غير أن هذا الرقم تقريبي على غرار الأرقام التي قدمت خلال نفس الفترة من طرف مؤرخي الغزو بخصوص البلد بأكمله.

وهكذا فبالنسبة للبعض يكون العدد الإجمالي للسكان ثلاثة ملايين نسمة وهو، في تقدير البعض الآخر، أقل من مليون نسمة إلا أننا لا نجد تفسيرا لجميع هذه التقديرات التقريبية؛[77] وفي المقابل، نجد رفضا قاطعا للمؤرخ الوحيد من الجزائر وأحد أعيان البلد، الذي يقدر عدد السكان بعشرة ملايين شخص وذلك على إثر قيامه برحلة طويلة، إذ يرى أن استعمار 1830 للجزائر "مسألة ذات طبيعة خطيرة.. كون الأمر يتعلق بحيوية أمة بكاملها"[78] وعليه؛ يمكننا التساؤل حول الأهمية التي يجب إعطاؤها لهذه المعطيات التي تختلف أرقامها في نفس الوقت من1 إلى 10.

وبالفعل؛ فإن هذا يُماثل الاهتمام المزدوج بتشكيل الصورة الاستعمارية للبلاد ومن جهة أخرى يُظهر أن الجزائر كانت إقليما كبيرا غير آهل بالسكان وأنه يتعين ملؤها توطينها وإظهار أن المجتمع الحضري الجزائري شبه منعدم، كونه يشكل أقل من 5 بالمائة من مجمل عدد السكان؛[79] الأمر الذي يُظهر بالتالي أن الحضارة المدنية في الجزائر لا تكاد توجد على الإطلاق في الوقت الذي تُعامل فيه بقية مدن شمال إفريقيا كهيئات حقيقية على قدر كبير من التمدُّن؛ وعلى سبيل المثال فإن المقارنات المعقودة بين الجزائر وتونس وفاس غير دقيقة إذا لم تؤخذ بعين الاعتبار الفترات البعيدة لجمع المعلومات. ويتعين اعتبار أن الإرث

الحضري الجزائري لما قبل الاستعمار، يعود إلى 1830، وفي المغرب إلى بداية القرن العشرين.

ومن جهة أخرى تم الاحتلال الفرنسي على إثر التدهور الأخير والسريع للبلد، تدهورا ازداد خطورة بسبب السنوات الثلاث من الحصار والتي ساهمت في تحضير الاحتلال الذي حسم أمره الانكفاء الحضري الشامل؛[80] ومن وجهة نظرنا، فإن الهدف غير المعلن لمؤرخي تلك الفترة، يتمثل خاصة في النفي التدريجي لكل مقومات المجتمع الحضري ومدينة الجزائر كهيئة حضرية كبرى. وفي هذه الحالة وبالنسبة للنظام الكولونيالي كان يتعين إضفاء الشرعية على هذه الصور في أدبيات القرن الماضي؛ وبعبارة أخرى، إظهار الجزائر كوكر للقراصنة وقطاع الطرق وليس كعاصمة لدولة.

ويجدر التذكير أنه إذا ما عرفت الجزائر سقوطا كبيرا في القرن السادس عشر، فإنه يعود إلى الأوبئة وإلى العديد من "المناورات البحرية" التي كان عليها أن تتحملها، قبل وبعد مؤتمر فيينا، بل أكثر من هذا علينا أن نتصور الحصار الفرنسي، من 1827 إلى 1830، وما ترتب عنه من وضعية مماثلة على السكان. ففي حالة الانعدام التام للأمن كان موقف أعيان "العاصمة" مطابقا لموقف بقية الأعيان لأي بلد في وضعية مماثلة.

لقد كانوا "يبحثون عن تأمين مصالحهم"؛ [81] وبعبارة أخرى يبحثون عن إنقاذ أنفسهم وسنرى ماذا فعله سكان مدينة الجزائر.

يميل مختلف مؤرخي هذه الفترة إلى اقتراح "تعايش" الأجناس السبعة للشعوب المتواجدة في بلد غير آهل بالسكان؛ فلم يكن أولئك السكان، على العموم، يقدّمون في تركيبتهم كحجم بل حسب الأعراق

أو حسب ترتيب التواجد بالنسبة للحكومة المركزية. ويتراوح هذا التواجد بين المجموعات الإثنية الأكثر أهمية والإثنيات التي تمارس الحرف الأكثر حقارة (الوضيعة) في القرن الثامن عشر.

ويقدر الألماني فون رهبين VON REHBIN عدد السكان بـ80 ألف نسمة أما بالنسبة لـ فنتوردي بارادي VENTURE DE PARADIS " فإن عدد السكان كان يبلغ 50 ألف نسمة يوزعهم كالتالي: المغاربة والبربر 32.000 والكراغلة 6000 واليهود 7000 والعبيد 2000.[82]

وحسب هذا (التعداد) يشكل السكان الموريسكيون أغلبية سكان المدينة (64 %) ويحتلون النشاط الصناعي والحرف التقليدية ويمسكون بزمام الجمعيات الصناعية المحلية. لكنهم، إلى جانب الكراغلة، خارج أية مشاركة في الشؤون السياسية: فالموريسكيون والبربر كانوا معفيين من الأعباء العسكرية وكانوا، في المقابل، يشكلون أغلبية التجار والحرفيين ويراقبون الاقتصاد بواسطة الجمعيات المهنية. أما في النشاط التجاري فيكتفي الأغنياء بالمساهمة، بأموالهم، في تجهيز السفن التي يجنون منها أرباحا كبيرة.[83]

غير أن صفة الأغلبية في العدد، لا يبدو أنها جلبت لهم بعض الامتيازات داخل المدينة وخاصة على الصعيد السياسي.

من هذه المجموعة الأولى (الموريسكيون والبربر) يتعين إخراج حوالي ستة آلاف من البرانية الغرباء عن المدينة، المجمعين حسب أصولهم تحت سلطة الأمين (رئيس المجموعة).

فهناك أيضا المزابيون، المنحدرون من ميزاب، وهم جد منظمين اشتروا من الباليك حق احتكار مهنهم: الجزارة والغزل والحمامات؛ ثم البسكريين والأغواطيين الذين أعلنوا كحمالين ورجال ثقة.

وأخيرا القبائل الذين يمارسون تجارة الزيت (وكانت الجزائر أكبر سوق لإنتاجهم) كما يعملون كمساعدين في البناء والحدائق. وتشير كتابات تلك الحقبة إلى أن القبائل كانوا دائما موضوع ريبة من طرف الأتراك الذين لم يستطيعوا أبدا إخضاع أراضيهم. أما الكراغلة وعددهم ستة آلاف في الجزائر وبالرغم من شغلهم لبعض الوظائف الإدارية فكانوا مقصيين من المهام العمومية الهامة.

وبالرغم من الانتفاضات، وخاصة انتفاضة سنة 1663، حيث ثاروا من أجل الحصول على امتيازات الانكشاريين إلا أنهم تلقوا هزيمة مروعة.[84] فلقد كانوا يتولون مهام بدون سلطة حقيقية من شأنها الارتقاء بهم إلى مواقع أعلى.

أما الأتراك فكانوا أقلية على عكس تعدادهم في البداية غير أنهم ما انفكوا يتناقصون؛ فلقد قُدر عددهم بعشرة آلاف، في عهد خير الدين، وبلغوا ثلاثين ألفا، في عهد "باي الارباي"، و22 ألف، في سنة 1664، وتقلص العدد إلى 5 آلاف في حوالي سنة 1789 (حسب venture de paradis) وإلى أربعة آلاف في سنة 1830 (Boyer) وحتى لو أنهم أقلية، فإنهم كانوا يتولون أهم السلطات، أما الأتراك المشارقة فيتولون أعلى المناصب في الجزائر.[85]

ويشكل اليهود جالية هامة بالجزائر حوالي (7000 نسمة)، ويختلف اليهود الأصليون عن يهود ليفرون. إذ ما انفك هؤلاء يحتلون مناصب سياسية واجتماعية، إلى أن أصبحوا، في نهاية الفترة العثمانية، أصحاب مكانة مرموقة في الحياة العاصمية فلقد كانوا رجالات البنوك للدايات ووسطاء رسميين بين الإيالة والدول الأوروبية.[86]

لقد كان الهاجس الأول للجزائر، في الحياة الاجتماعية والثقافية، أن تكون أغلبية سكانها من المسلمين: فالإسلام بحاجة

إلى المدينة من أجل قيمه الاجتماعية؛[87] مدينة تعيش في ظل الوحدة الروحية والسلطة والتجارة.[88] وهكذا اتخذ الإسلام كامل أهميته في الجزائر – التركية فالمجتمع برمته يستمد إلهامه من الإسلام وينتظم وفقا لتعاليمه.

كان في مدينة الجزائر، على سبيل المثال، 159 مسجدا؛ وكان لهذه المساجد مكانة مركزية لا تُعوّض: فهي ليست فقط مكانا للصلاة والعبادة بل كانت دوما ملتقى للسكان الأهالي في مدن المغرب العربي؛[89] وهذا ما يفسر، آنذاك، الطابع الثانوي للساحات العمومية التي كثيرا ما تمت الإشارة إلى غيابها في تلك المدن حيث تلعب المساجد دورها بإسهاب؛ فالمسجد مكانٌ للعلم ومدرسة غير محدودة العدد.[90] إنه الفضاء الحضري حيث "تنوع اللهجات"، يعادل تنوع الأعراق؛[91] ولقد كان تنوع السكان أيضا من بين العناصر التي ساهمت في نهضة المدن خلال العهد العثماني ويتعين علينا الإشارة إلى تدفق السكان الذين أثروا المدينة بتنوعهم وبأنشطتهم.[92]

فإذا كانت المدينة، في تركيبتها الإنسانية، تمتلك طابعا نوعيا ومتنوعا في الثقافة ومظهر عاصمة دولية، فإنها تبقى المدينة ذاتها حيث ينظم الدين الإسلامي جميع شئونها.

ومن وجهة نظر الطبقات الاجتماعية، لا يمكن إلا أن نقترح ترتيبا مختصرا لسكان المدينة حسب المجموعات ووفق الترتيب التالي: الأتراك (سادة المدينة) ثم الكراغلة، فالموريسكيون (سكان المدينة من أصول قديمة أو المنحدرون من الأندلس والثغريون المطرودون من إسبانيا).. وفي مرتبة لاحقة نجد البرانيين الغرباء عن المدينة، فاليهود والمسيحيين، (العبيد، الأسرى، التجار). أما فيما يتعلق بمفهوم الطبقات فمن الصعب حصرها لأن مصطلحات

التمييز تُعبر عن العلاقات الاجتماعية، في تلك الأثناء، أكثر مما تعبر عن تباين الثروة: "فالتمايز الاجتماعي يقوم حول الحرف وحول الدين وخاصة حول الانتماء العرقي" للوصول إلى هذا التناقض في البنية الاجتماعية المختلفة جذريا حيث لا وجود فعلي لطبقة أو فرقة.[93]

أما بخصوص النماذج الخاصة بالعلاقات الاجتماعية التي تحكم المجتمع الحضري العاصمي فيمكن تقديم سببين:

فمن جهة؛ تعايش مختلف المجموعات العرقية والاستغلال السياسي لخاصيتها، ومن جهة أخرى، لم يكن ازدهار المدينة وراء تفاقم أشكال العلاقات الاجتماعية المهيمنة. ولقد أمكن التحكم في السلم الاجتماعي النسبي، في المدينة، بواسطة المساعدات الهامة التي يدرها نشاط القرصنة وبفعل الأسعار المنخفضة للمواد الفلاحية وبالنسبة للتعليم والثقافة؛ بحيث كانت نسبة الأميين ضعيفة لا محالة مقارنة بأوروبا؛[94] ففي حين كتب بوايه Boyer، في سنة 1963، أن "الحياة الفكرية غير موجودة وأن الأمية عامة"[95] فإنه يخفي بذلك أهمية أملاك الحبوس (الوقف) الذي كان يُكرّس جزءً كبيرا من عائداتها لسير المدارس والمدارس القرآنية وللتكفل بالطلبة، الأمر الذي يدل على حجم الاحتياجات الثقافية التي كان يتعين تلبيتها.

وفي النهاية؛ لقد سمح نشاط أهم الموانئ بالتواجد في قلب حياة اجتماعية غنية ومتنوعة حيث يتوزع الرجال ويصنفون وفقا لأنشطتهم وثرائهم في مواجهة العجز والبؤس إذ يوجد تحت تصرف الجميع إطار حضري جد متطور بكل ما يترتب عنه من موارد للحضارة.[96]

وأخيرا، أيضا، يتعين التذكير بأن هؤلاء السكان يتعرضون للإقصاء من المساهمة في الحياة السياسية، وبالتالي في الحكم، فليس هناك غير سكان العاصمة الذين يعيشون حياة اجتماعية ذات إيقاع منتظم؛ وهي حياة يمكن أن تكون آنذاك في عاصمة أخرى إلا أنها كانت غير ذلك في مدينة قطاع الطرق التي تعيش على الفوضى والاضطرابات الدائمة.

3. الهندسة الحضرية والفضاءات الاجتماعية

كيف كانت الملامح المميزة للمدينة على صعيد فضاءاتها؟ وكيف كان يُنظر إلى المدينة من الخارج ومن خلال الصورة والخرائط التي كانت موضوعا لها؟

إنّ أسباب تحول المدينة إلى قلعة للقرصنة كامنة وراء عناصر الإجابة على هذه الأسئلة لكي نتمكن من الإلمام بطريقة التنظيم الحضري للمدينة ومدى ملاءمته لفضائها؛ وسنرى، عندئذ، وظائف طرفي المدينة ومفهوم كل من الحي والشارع والبيت "التركي". تُشكّل المدينة التركية فضاءً متجانسا يقترن بالتضاريس الوعرة للأرض التي تطورت المدينة فوقها طيلة ثلاثة قرون. كما نقترح مقاربة هذه المسألة من خلال مظهر المدينة الخارجي وموقعها وتخطيطها الهندسي الذي نال إعجاب المؤرخين الأجانب في جميع الأزمنة.

وصف الرحالة والتجارُ، وحتى الدبلوماسيون، هذه المدينة وصف المغرم المولع بعبارات وحساسيات مختلفة وتم الإجماع على كيل عبارات الإعجاب والمدح والجمال؛ ولقد اقترحت

مدارج الجزائر القديمة، صورا متنوعة، على عقول الذين وصفوها أو تحدثوا عنها.

وتمت مقارنة جزائر الأتراك بـ (برنوس أبيض منشور في الطبيعة. وبثوب لراهب الذي هو قلعة القصبة.(97)

ففي مقدمة كتاب ألفه ج. مارسيه G.Marcois بعنوان "الجزائر البربرية" يقول، بصفته متخصصا في المدن الإسلامية والشمال إفريقية، ما يلي: "إذا كان "هذا" الكتاب قد حدد بطريقة صعبة وحساسة المظاهر الثمينة بقدر ما وصفها بالهشة فالأمر يتعلق بإحدى المدن الأكثر غرابة في العالم".(98) في القرن الخامس عشر كانت مدينة الجزائر، رغم وصفها بالأصقاع وبدون صيت، مدينة هامة إذ لم تكن بالتأكيد مدينة القرنين السادس والسابع عشر بيد أنها كانت تظهر آنذاك بمظهر مدينة لأنها فعلا كانت مدينة تتسلق المنحدر نحو هضبة الساحل، الذي نسميه اليوم القصبة، وكانت أنشطتها تعكس نشاط تجاريا مثمرا؛(99) فالتشبيهات المزخرفة كثيرة بخصوص الجزائر وعلينا أن نحكم.

1- إنها أكبر سفينة بلا شراع... سلم للعمالقة.

2- إنها منجم رخام ناصع البياض.

3- إنها مدينة الثلج تحت الضوء الباهر.

4- إنها الشلال المتدفق الخ...فجزائر ما قبل الغزو كانت تبدو للناظر كمثلث ناصع البياض ينتصب على شاطئ البحر.(100)

لكن؛ إلى جانب هذه المدينة المغتصبة نجد أوصافا أقل نصاعة عندما يتعلق الأمر بالجزائر البربرية (101) على شاكلة تعبير مجازي عن المدينة قلعة لتجارة التي نجدها في الإيكونوغرافيا الأوروبية.

إنها قلعة قائمة بذاتها، من حيث مظهرها ومن خلال المثلث الذي تشكله مما يؤكد أنها مبنية على هضبة. بيد أن ما يجعلها قلعة حقيقية هو موقعها الجغرافي الممتاز للرقابة البحرية: "فالجزائر تقع على نصف المسافة بين سبتة ceuta وخليج بونة Bonne"؛ زيادة على كونها تشكل النقطة الأكثر تقدما في إفريقيا الشمالية".(102)

إن قدوم الأتراك يزعج الأسبان بقوة، في نظر ج. مارسيه (G.Marçais)،(103) إذ أن إقامة الأتراك التي مرت بتهديم حصن "البنيون" PENON (1529) تلغي في النهاية مزاعم الهيمنة الإسبانية وتنفي، في نفس الوقت، سيطرتهم على البحر الأبيض المتوسط.

إنه لمن اليسير تصور وضعية الجزائر، ابتداء من 1516، أمام تقدم الباب العالي والمخاوف الإسبانية التي كانت تجد مبرراتها في المسلمين الذين جاؤوا لنجدة إخوانهم من قمع المسيحيين" (104)

المدينة القلعة

وانطلاقا من الاعتداءات التي تعرضت لها، طورت الجزائر، أبعادها ووضعية مدينتها "دار الجهاد" وكذا أنشطة القرصنة وأصبحت الجزائر، بفضل هذا النشاط المنظم، ليس فقط مدينة قوية في البحر الأبيض المتوسط بل وغنية تستقطب الكثير من الناس.

لجميع هذه الأسباب، التي ليست كلها ذات طابع ديني، قامت البلدان المسيحية بمحاولات جدية لغزو المدينة؛ ويتعلق الأمر، بكل حالة يتم تحليلها، بالأهداف الاقتصادية أساسا مثلما يشير إليه شارل أندريه جوليان بقوله: "لقد كان الهدف الرئيسي للغزو هو استعمار الجزائر، اقتصاديا، وليس شن الحرب الصليبية.(105)

ولقد أفلحت هذه المحاولات، في استدامة الطابع الجهادي للمدينة، حيث سمي بابها باب "الجهاد" وهكذا أصبحت الجزائر قلعة؛ ولقد تم وصفها آنذاك بأنها"المحروسة جيدا". فكيف كان تنظيم الدفاع عن المدينة التي أصبحت لا تقهر؟ لقد انصب الاهتمام الأول للأتراك على توسيع حجم الحواجز الموجودة من قبل وبناء قلاع جديدة (القصبة) كما أنشأوا الميناء؛ وبالفعل، فالجزائر كانت دائما محاطة بالمتاريس التي تقوم، زيادة على استجابتها للهاجس الأمني، بدور الحدود المضبوطة للمدينة.[106]

وهكذا كان ميناء خير الدين موجها ليكون ملجأ وقاعدة للقراصنة؛ وكانت حمايته العسكرية من الأسطول الأوروبي من أكبر اهتمامات أمراء الجزائر؛[107] فلقد اضطروا، بعد التجربة الأولى مع الإسبان، إلى بناء الحصون.

إن هذه التجربة بدلا من أن تخرّب الجزائر زادت من قوتها التي لا تقهر وتحولت إلى كارثة على الأسبان.[108] وعلى هذا الأساس؛ قام من خلفوا البايات الأوائل بتطوير نظام الدفاع بالتزامن مع الاعتداءات وبالتالي معاينة نقائص المدينة.

إنه عمل طويل المدى، كل مرحلة فيه، يمليها تهديدٌ طارئ أو بعض العمليات البحرية من طرف القوى المسيحية؛[109] ولقد أقيمت المتاريس في الأماكن التي كانت عليها منذ عهد الرومان أو بولوغين وهي تحيط بالمدينة وتعطيها شكلها المثلث الخاص والتي يُشبّهها الجميع بسفينة بلا شراع. [110] كما أقيمت فتحات في المتاريس "الأسوار" وفي الأبواب الرئيسية الخمسة للمدينة التي تغلق مع قدوم الليل؛ وكان على هذه الأبواب حُراسٌ لهم منازل تقع على الطرق المؤدية إلى بقية أنحاء المدينة والبحر؛[111] وزُوّدت المدينة بالحصون كوسيلة للدفاع إذ نجد العديد منها، وخاصة في

جهة البحر، تعطي للمدينة مظهرها كقلعة؛ ولهذا يصف الرحالة في خرائطهم الجغرافية المدينة بأنها غير جديرة بالتصوير أكثر مما هي جديرة بفوهات مدافعها؛ وتقع هذه الحصون ذات الأسماء غير المعهودة أحيانا، في المواقع الرئيسية للمدينة.[112] ففي أعالي مدينة الجزائر، تنتصب القصبة (القلعة) الموجهة مدافعها نحو البحر "إن أول اهتمام لعروج، كان ابتداء من 1516، يتمثل في البناء في أعلى المدينة القديمة للقصبة [113]. تعويضا عن القصبة البربرية، وهو يستجيب بذلك لهاجس أمن المدينة، هاجس تمليه أيضا الضرورة الديمغرافية، كون المدينة أخذت حجما ملحوظا بسبب الوافدين من الأندلس وكذا انتشار الأتراك.

ولقد أصبحت هذه القلعة التي دافعت عن العاصميين من موقعها المرتفع، في نهاية فترة الوصاية، مقرا لإقامة آخر اثنين من دايات الجزائر هما: الداي علي خوجة الذي اتخذها مقرا له، ابتداء من 1816، قصد تفادي "الأهواء" السياسية للانكشاريين؛ وبعد وفاته عُيّن آخر داي (حسين) الذي احتفظ هو الأخر بالقصبة كمقر لإقامته إلى غاية سقوطه في سنة 1830.[114]

لم تتعرض الجزائر، في تلك الأثناء على الأقل، إلى التفاعلات الأوروبية التي كانت تواجهها؛ وهي وضعية أبقت على المدينة في حالة تأهب وأعطتها طابعا عسكريا ضمن فضائها، بسبب نظام دفاعها وبالتالي كمدينة قلعة؛ فالجزائر التي كانت مهددة دائما، من جهة البحر، كان تعزيز موقعها وحصونها من بين الاهتمامات الرئيسية ذات الأولوية لحكامها طيلة ثلاثة قرون.[115]

وبعد أن عبر المؤرخون عن دهشتهم للرعب الذي أحدثه هذا "الملجأ الحقير" في البحر الأبيض المتوسط طيلة أكثر من قرنين، والذي اعتُبر حصنًا يتعذر اختراقه بعد الهزيمة المدوية لشارل

الخامس عشر (Charles Quint)، في سنة 1542، شهد أولئك المؤرخون بمتانة الدفاع عن مدينة الجزائر التركية: "يجب الاعتراف، أنه نادرا ما تزود أماكن بحرية بمثل هذه التجهيزات، ويمكنهم بلا مبالغة تقليد هذه الأخيرة وسام "المحروسة جيدا".[116]

لقد كانت هذه المدينة التي لا يعرفها الكتاب الأوروبيون في الغالب إلا من الخارج ولأسباب أبعد من أن تكون ذات صلة بالفضول الفني أو العلمي، كانت من الداخل، شيئا آخر غير المدينة المرعبة للبحر المتوسط. فمدينة الجزائر، كان لها مجتمعٌ متمدن واقتصادٌ مزدهر وفضاءاتٌ اجتماعية منظمة وفق منطق نشوء وممارسات المدينة الإسلامية في تلك الفترة.

الفضاءات الاجتماعية للمدينة

كانت مدينة الجزائر تدب بالنشاط والحيوية داخل الأسوار المحيطة بالمدينة وعلى شواطئ البحر أولا، ثم في المرتفعات ثانيا، وكان عدد سكانها يتراوح، حسب الفترات، بين 80 و150 ألف نسمة خلال الحقبة التركية.[117]

فالفضاءات الحضرية للجزائر تُماثل تلك التي كانت معروفة في مدن شمال إفريقيا؛ وبهذا المنطق الخاص، أيضا، المدينة الإسلامية. وكان للجزائر "نواتها البحرية" التي تضم العناصر الأساسية للمدينة ذاتها؛ وبعبارة أخرى: المسجد وقصر الداي والسوق الكبيرة.[118] ويقترح لوتورنو LETOUREAU، في إحدى دراساته، ليس فقط التمايزات مع بقية نماذج المدن بل محاولة لتعريف تركيبة الظروف الأولى لنشأة حياة حضرية في الإسلام وفي حالة تصور يميز، في آن واحد، بين طرفي المدينة وبين نموذج الفضاءين ذي الوظائف المختلفة بجلاء. ويستجيب

هذا التصور للحيز الجغرافي الموجود في حياة المسلم الحضري القاطن في المدينة وذلك بالفصل بين الحياة العائلية التي يحميها إلى أقصى حد، وبين الحياة العامة.

ولهذه الحميمية التي يحتفظ بها قاطن المدينة، بُعدان هما: الحي والمسكن (الإنسان في بيته وهو في حيه). ولا تزال هذه الحميمية ماثلة في أيامنا هذه بالرغم من تراجعها بقوة فلقد تم التعبير عنها، بصفة طبيعية، في أبعادها الجغرافية إذ تضبط حتى نمط الإنتاج للحيز كما سنراه لاحقا. فالمدينة، بالنظر لسكانها، مجزأةٌ إلى جزئين هما:[119] الجزء الأعلى، أي الجبل، وتقطنه العائلات الموريسكية وهو عبارة عن متاهة من الشوارع الضيقة والملتوية ويتكون أساسا من الأحياء السكنية الراقية بمعنى سكنات عائلية بدون أية أنشطة للإنتاج والتبادلات. وفيه تتقلص الأداة الجماعية إلى الحد الادنى أي: المسجد والفرن، بدون تجارة ولا ورشات، ولقد تم إبعاد سكان هذه الأحياء إلى أحياء خاصة وهو ما يطلق عليه المفهوم العائلي للمدينة.[120]

إن الحفاظ على هذه الحميمية كان أعمق بكثير في المدينة عنه في أحياء هذا الجزء منها الذي يغلق عند قدوم الليل. ويعوض هذا بالفعل، عدم مساهمة سكانها في تسيير المدينة. وبهذه الطريقة، يتعلق الأمر بالتعبير عن هذه "الخصوصية" باستقلالية المدينة العليا بالنسبة لسكانها. وهو ما نجده لاحقا في مفهوم الحومة (الفضاء الجماعي) للجزائر الكولونيالية.

أما المدينة السفلى (الوطا) فهي الجزء المسطح: الأكثر حيوية وتعددا وينظر إليه على أنه فضاء عمومي أي فضاء المدينة بما تحتضنه من سكان من مختلف الأعراق ووظائف الإنتاج والمبادلات الخ.

ويعبر هذا الجزء الشوارع الأكثر أهمية، باب الواد، باب عزون، شارع لا مارين (البحري)؛[121] وكان الطريق (المنفذ) الذي يربط باب الوادي وباب عزون السوق الكبير بقبابه وشوارعه المغطاة. ففي هذا الجزء نجد قصر الجنينة والمساجد الكبرى للمدينة وحي القناصلة والمساكن الفاخرة للرياس. وكان للجزائر مقاهٍ متعددة، عددها حوالي 60 مقهى، وكانت عبارة عن هيئات فعلية موزعة حول حي البحر (لامارين) وباب الوادي وباب عزون.[122] لا يزال هذا الجزء من الجزائر العاصمة، في أيامنا هذه، مركز المدينة الشعبي يؤمه العاصميون من مختلف الأحياء وهم يقولون "سأنزل إلى الجزائر" ويجب التوضيح أن التمييز كان تلقائيا وليس مفروضا على الإطلاق إذ لم يكن للأتراك ولا للموريسكيين أحياء خاصة بهم؛ بيد أن المدينة العليا كانت لإقامة هؤلاء في حين يقطن أسياد الجزائر الحقيقيون، وهم رياس الطائفة وأهل البحر، في المنطقة السفلى المجاورة لشارع البحرية.[123] مما يعني أن السكان اختاروا الإقامة وفقا لأقدميتهم في المدينة ولأنشطتهم المهنية واليومية.

الأحياء

تتكون المدينة من أحياء تقع بين مركز المدينة والحرم المحصن؛ ويختلف الحي، من وجهة نظر مزدوجة، فهو يماثل نوعا من الحياة التي يحياها ثم يُعرَّف لاحقا وفقا للأفراد الذين يقطنونه بدون أن يشكل هذا تعارضا طبقيا بين الفئات الاجتماعية. ويماثل التكوين الاجتماعي لأحياء الجزائر ذلك التمايز القائم لذاته.[124] وبالفعل فالتمايز موجود بشكل كامل بين الحمالين وكبار التجار والرياس.

لقد عرفت الجزائر على الأقل أربعة أنواع من الأحياء:

أولها هو حي الكثافة السكانية الذي يتشكل منه الجزء الأعلى للمدينة، أما الثاني فهو منطقة النشاط الصناعي والحرفي، الواقعة عموما في الضواحي، حيث كان لبعض البوابات أنشطة متخصصة فهناك بعض الأنشطة يحدد مكان تواجدها خارج المدينة مثل: صناعة الفخار والجلود ومعاصر الزيت؛ وتشكل منطقة الوسط نواة الأنشطة السياسية والإدارية والدينية؛ وأخيرا منطقة الميناء التي عرفت بنشاطها المكثف على مدار تاريخ الجزائر.

لقد كان مفهوم الحي قائما في المدينة، حيث كانت الحدود الإقليمية تتميز بوظائف هذه الفضاءات ذاتها "ومثلما كان للأحياء أهميتها القصوى، كانت المدينة مقسمة، بما يتلاءم إلى عدة أحياء إدارية، يجمع كل واحد منهما اثنتين من ثلاثة من الأحياء الفعلية.[125]

ومن وجهة نظر اجتماعية، فالحي هو تجميع لمنازل متشابهة حيث يبدو النموذج العائلي، الذي بُني على أساسه النظام الاجتماعي، أكثر احتشاما منه في الريف ولكن بنجاعة أكيدة.[126]

وبالنظر إلى الطريقة التي تشكلت من خلالها الأحياء يمكن القول بأن سكانها يقيمون علاقات قرابة أكثر منها علاقات جوار؛ وضمن هذا المنطق ليس للحي سوى وظيفة سكنية فقط وسنرى أن وظيفة الشارع قد اقتصرت في الدخول إليه. ويتجسد هنا الطابع الخاص للشوارع بصفة صارخة، فكل ما هو عمومي وجماعي، هو مركز المدينة ، الذي يتحدد سواء في مخرج البازار والمسجد الرئيسي، أو في منطقة الأنشطة المختلفة ذات الفضاءات المتخصصة.[127]

وسنتطرق هذه المرة للشارع الرئيسي، شارع ميدان الجمعيات الحرفية، الذي يمتاز بكثرة عبوره وكثافة نشاطه التجاري في المدينة السفلى أساسا. فلقد وصف العديد من الكتاب الأوروبيين شوارع مدينة الجزائر بعبارات مثل: ممرات عادية وفقا لوظائفها، وبالملتوية، وبالمتاهات الفعلية ..إلخ أما في نظر المعتادين على الشوارع المخصصة للمركبات (الأوروبيون) فإن ذلك يبدو تضليلا، لماذا شوارع ضيقة وغير مستقيمة ولماذا كل ذلك العدد من الدروب ؟

وتجدر الإشارة، أولا، إلى أنه عند تشكل العاصمة كانت المدينة في جزئها السفلي مقسومة من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق بشارعين رئيسيين: الأول شارع تجاري بامتياز وسوق كبيرة وكان بمثابة خليط فعلي من الأعراق.[128] وكان الثاني شارعا كثيف الحركة يؤدي إلى باب البحرية حيث مخارج المساكن تغطي أكثر من نصف الشارع؛ وتتوفر دراسة مهمة للغاية حول تطور شارع الجزائر، ألهمتنا حول طابع وتاريخ تشكل الشارع في الجزائر.

إنه بالفعل تاريخ، توطن سكان العاصمة وحصونها وتشكل فضاءاتها الاجتماعية، الذي يفسر منطق مخطط العاصمة ثم عراقيل المجال الجغرافي، فقد كانت هناك العديد من الانحدارات والينابيع القليلة العمق من جهة، والتجارة المزدهرة وتزايد عدد السكان الذي جعل المدينة تكبر بسرعة، وبالتالي ضرورة البناء التي تفرض نفسها. فالمباني الجديدة "تلتصق بالتي بنيت من قبل" تغزو الفراغات الأرضية الحرة رويدا رويدا.[129]

يُماثل نموذج الشارع، هنا، منطق التصور الأولي للمدينة وجود الينابيع ثم العديد من الآبار التي كانت توجد تقريبا في جميع

مساكن الجزائر. وغالبا ما يفسر أصل الشارع بـ : المنحدرات الصغيرة التي تستقبل مياه الأمطار والتي تجذب المساكن إلى ضفافها بسبب سهولة تصريف المياه التي تتيحها من أجل التدفق العادي والعقلاني للمياه القذرة.[130]

هكذا تشكلت الشوارع من الفراغ المتروك بين منزلين وبالتدرج البنايات بمعنى فضاء مهيأ كدرب للوصول إلى أبواب المنزل. ويُفسر أصل الشارع حسب RAVINEAU بكون طرق العاصمة متعرجة واتباع قنوات الصرف الصحي للالتواءات المنحدرة، وعلى سبيل المثال، عندنا القصبة والسور الجديد، من طرف الأتراك ، ثم تشييد الكثير من المباني. غير أنه ابتداء من اللحظة التي لم يعد فيها هناك فضاء حر بدأ البناء حول الشوارع الأمر الذي يفسر وجود شوارع مغطاة بالبناءات في شكل أقبية "السبعات"، والتي كان يتمتع بعضها بالشهرة،[131] وكذا بالعديد من الدروب.

ففي دراسة للفضاء القديم، نجد على خريطة الجزائر، لسنة 1831، أكثر من 151 درب في مدينة تتوفر على حوالي 180 شارعا.[132]

إن قرب الينابيع وإمدادات المياه، يسمح للسكان بصيانة شوارعهم. وعلى عكس بعض الكتاب يبين شالر SHALER "أن تلك الشوارع معبدة وموضع عناية جيدة ".[133] ويأتي هذا التثمين لإظهار أن شوارع الجزائر كانت أبعد عن هذا التضليل الذي تعرضت له. وفي الختام نلاحظ أن الطرق الأخرى للمدينة ذاتها تشبه مظهر جميع الشوارع في البحر المتوسط، سواء في المدن العتيقة في نابولي أو في طولون والتي نجد بها مساكن تغطي الشوارع.[134]

إن أهمية الشارع، في عاصمة الجزائر، تُستمد أيضا من اسمه الذي غالبا ما تكون له علاقة بوظائف حضرية. ففي بعض الأحيان يشير اسم الشارع إلى وجود ينبوع مياه أو أثر تذكاري أو مسجد؛ وفي الجزائر يدل الاهتمام بتسمية الطرقات باسم يذكر بنشاط ما مثل: "سوق الرحبة" أو "سوق الحبوب" الذي يميز الحي ويُبرز هيكلا حضريا بمنأى عن ثغرات التنظيم الاجتماعي أو الحيز الجغرافي للمدينة.

البيت كنموذج عائليّ للنظام الاجتماعيّ

يختلف عدد البيوت بصفة ملحوظة، حسب الفترات، وكما سبقت الإشارة إليه فلقد تميّز تاريخ المدينة بالزّخم على مدار الحقبة التّركيّة. ويؤكد الكتاب وجود ما بين 12 ألفا إلى 150 ألف مسكن، في القرن السّابع عشر الميلاديّ، وفي القرن الثامن عشر قرر الداي أحمد، ولأسباب أمنيّة، إزالة حيٍّ يتكوّن من 1500 مسكن؛ وإنه لمن المفيد الاحتفاظ برقم 8000 مسكن التي كانت تتكون منها الجزائر العاصمة، سنة 1830، حيث لوحظ تدمير ثلث هذه المساكن مع مجيء الفرنسيّين مباشرة.[135]

إذا كان عدد المباني العموميّة ضعيفا في عاصمة الجزائر فلقد كان هناك بالمقابل عدد كبير من المنازل تخفي وراء واجهتها ديكورا جذّابا وباذخا؛ وبالفعل، مُنحت أهميّة كبرى للمسكن لكونه الملجأ وفضاء الحياة الخاصّة بامتياز؛ فالمسكن، بالنّسبة للمدينة، نموذجٌ للمجتمع الحضري وهيئة عائلية تشبه المساكن الخاصّة التي بها فناء.[136] إنّها قاعدة للنّظام الاجتماعيّ الحضريّ للمدينة وبالتّالي قاعدة للتّصميم الأصليّ للمدينة.

يتطابق تصميم المسكن، نوعا ما، مع إطار المدينة ويستجيب أوّلا لاهتمام المحافظة على الحياة العائليّة وأيضا لنظرة الفضاء الحضريّ، حيث التّمييز بين الخاصّ والعامّ منها؛ ولقد حظيت هذه النّظرة بإجماع الكلّ، سواء على صعيد الحياة الاجتماعيّة [العائليّة] أو على الصعيد المناخيّ [نفس نموذج المساكن، نفس منطق توزيع الفضاءات]. ولقد جعل مثل هذا الإجماع من "الملامح متشابهة وذاتها في جميع الأماكن".[137] فقد كتب المعماريّ Guiauchain حول الجزائر قائلا: "يبدو أنّها بُنيت على طراز واحد ومن طرف نفس الفريق من العمّال".[138] وهكذا يمكننا وصف المجتمع الحضري في تصميمه المعماري للمساكن الموريسكيّة في الجزائر على درجة من الوحدة مما يفسر تطابقها الكامل مع نمط الحياة وأخلاق السكان".[139]

لقد تعرّض العديد من المؤلفين إلى تصميم المسكن في الجزائر، سواء في الحقبة التّركيّة أو في عهد الاستعمار، ثم إلى نوعيّة المساكن من حيث فضاءاتها الدّاخليّة وتصميمها المعماري البحت؛ ويلاحظ كاتب الرحلات في عهد الوصاية على الجزائر "من بين جميع الفنون التي يفضّلها المسلمون، أكثر من غيرها، نجد الهندسة المعمارية وإنّ ما يهتمون به أكثر في مساكنهم هو أن تكون ملائمة وفسيحة".[140]

أمّا Lespes فلم يتأخر في الثناء على المساكن الموريسكية بالجزائر معبّرا عن أسفه لتعارض بياض مساكن القصبة، التي تشكّل القمّة، مع اللون الرمادي للأحياء الأوروبية التي تحتوي عليه اليوم؛[141] ويتكون مسكن الجزائر – التركيّة من اثنين إلى ثلاثة مستويات إذ نجد عند المدخل "السّقيفة" المبنيّة بحجر الرخام وهي عبارة عن قاعة انتظار للزوار. وتطل هذه الغرفة

على الفناء الداخلي، "وسط الدار"، محاطة بأعمدة وذات شرفة مقوّسة؛[142] وتوجد هناك قاعة للاستقبال وقاعة للأكل وغرفة للمنونة.

إنّ الطابقين، الأول والثاني، عبارة عن نسخة مكررة من الطابق الأرضي وبهما غرف من الجوانب الثلاثة للمسكن ولهذه الغرف أسماء خاصة بوضعيّتها، إنها:

في الطابق الأرضي "بيوت"؛ و في الطابق الأول "غرفة" وفي الطابق الثاني "منزه" ويغطي المسكن شرفة "السطح" وهو فضاء يطلّ على خليج الجزائر، يخصّص للعنصر النسوي.

ويعدُّ هذا الترتيب نتيجة مشرفة لتنظيم عمراني جدّ صارم؛[143] فلا تطرح مسألة الصّيانة والماء، كون أغلبيّة المساكن العتيقة تتوفر على آبار أو على صهريج وأحيانا على الإثنين معا. إنه تقليد يلزم السّاكن بوضع صهريج بكلّ منزل، ويسمح هذا التّرتيب بتنظيف المنزل يوميّا من أجل النقاء والبرودة و"الانتعاش"؛ ولا تزال هذه الممارسة قائمة لحدّ الآن في الجزائر بالرّغم من انقطاعات الماء.

أما خارج المسكن فيبقى موضوع عناية أقلّ فالباب مؤطّر بالرّخام المنقوش والمزخرف؛ أمّا الدّيكور، فيخصّص لداخل المسكن حيث تتلاءم اللمسات مع الذّوق والرّغبة؛[144] ولقد تمّ ترتيب كلّ شيء، لجعل المنزل الملاذ الحقيقيّ للحميميّة. فالفضاء المنزلي والدور المنوط بالمسكن هو الفضاء المفضّل للمدينة والعائلة.

يُقرُّ ل.فالنسي L.Valensi بأنّ العائلة في الواقع، وفي جميع هذا، هي من تعود إليها الكلمة الأخيرة.[145] الأمر الذي يُذكّر، لا

محالة، بحكم آخر ألا وهو: استمرارية الفضاء الحضري في المغرب العربي ما قبل الاستعمار، كفضاء منزلي.[146]

إنه لمن المهمّ، بعد هذه القراءة لبعض الملامح الحضرية " الجزائر التركيّة"، متابعة تحليل المدينة من خلال التطور والتدهور الاقتصادي.

4. من ازدهار القرصنة والمدينة إلى انحطاطهما

إذا كانت هناك حقيقة، لم يستطع المؤرخون الاستعماريون إنكارها، فهي ازدهار الجزائر في العهد العثماني. فبحياتها الحضرية المنظمة وعائداتها الكبيرة من نشاط القرصنة البحرية، عرفت الجزائر ثروة اقتصادية حقيقية. لكنها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر شهدت حالات من الاضطرابات سببتها الزلازل المأساوية والانتفاضات الشعبية وانتكاسة القرصنة فكانت أسبابا كافية لأفول نجم الجزائر.

يتعين التذكير بأن ازدهار هذه المدينة يعود إلى ما قبل مجيء الأتراك؛ ويصف الرحالة العرب الجزائر بأنها مدينة حصينة وغنية وذات تجارة هامة مع سهول المتيجة ذات الأراضي الخصبة والقريبة ويُنوّه كُتّابٌ آخرون بهذا الازدهار؛[147] فمن الأكيد أن المدينة بدأت تعرف انطلاقتها الفعلية، في أهم الميادين، وتتجه نحو إقامة هيئة حضرية أي "نهضة عمرانية " أمام تزايد عدد السكان الذي لم تشهده من قبل وكذا بفضل تطور التجارة والعائدات وذلك ابتداء من القرن السادس عشر.

ومن ثم أصبحت المدينة "عاصمة" ودخلت في فترة ازدهار، مثلما وصفها الكُتّاب، على غرار F.BRAUDEL، حيث يذكر هذا الأخير أن العشرية الممتدة بين 1560 و1570، كانت عشرية للثروة المدهشة في الجزائر وأن السنوات الممتدة من 1580 إلى 1620 قد شهدت الطفرة المالية الثانية لهذه المدينة.[148]

الاقتصاد والقرصنة والازدهار

يقوم اقتصاد المدينة على مصدرين من الأهمية بمكان؛ فالمصدر الأول له علاقة بالاقتصاد المعاشي والعلاقات المحلية؛ ويرتكز الثاني على نشاط القرصنة الذي عرفته الجزائر. فالمورد الأول، وهو الأهم لا محالة، هو مورد فلاحي بالدرجة الأولى وتقليدي في المقام الثاني ويميز هذا الاقتصاد الأرياف والمناطق الداخلية أكثر فأكثر.[149]

ويرتكز بالفعل على علاقات المدينة بالأرياف في المبادلات حيث تتولى الضاحية القريبة تموين المدينة. لقد كانت المدينة، آنذاك، مكانا للمبادلات الأكثر تنوعا حيث يتولى الناس بيع منتجاتهم وشراء المنتجات التقليدية الحضرية؛ فكل يوم من أيام الأسبوع يقابله اسم سوق في المدينة. إنها رزنامة معدة تبعا للفصول وللأعياد الدينية، فالسوق هي مكان اللقاءات الكبرى؛ وفي الجزائر تُمارس العبادة بالقرب من الأسواق وتتزامن أهم الأحداث التجارية مع أهم المواعيد الدينية الكبرى.[150]

وكانت للمدينة صناعتها؛ مثل الصناعة التقليدية وصناعة المدافع (السّباكة) وسك النقود الخ... وكانت الورشات البحرية هي المؤسسة الأكثر أهمية وبلا منازع للوصاية؛ ولقد كان يخرج من

هذه الورشات عدد كبير من الزوارق والمراكب الشراعية الصغيرة والشباك وغيرها من القوارب.[151]

كانت الصناعة التقليدية تلبي، بما فيه الكفاية، حاجيات السكان من القماش ومن الحرير الخ.. ففي حوض البحر الأبيض لمتوسط يُفتخر بالصناعة التقليدية الجزائرية من حرير وأحزمة وهي منتجات تنافس الصناعة النسيجية في ليفورن (إيطاليا). وكانت الجزائر تصدر بكثافة منتجات الأرض، وخاصة الحبوب،[152] ويحتكر الأتراك أو ممثلوهم نشاط التصدير ويتولون، لوحدهم، تسيير العلاقات مع القوى الأجنبية.

أما ما يتعلق بالاقتصاد المرتبط بنشاط القرصنة البحرية، فهو وحده من يقف وراء ثراء مدينة الجزائر وسكانها. لقد كان اقتصاد القرصنة البحرية- الذي يعتمد على الحركية والتطور والعلاقات البعيدة أكثر تألقا وأقل ديمومة ويقتصر خاصة على المناطق ذات الشواطئ وبعض المحاور الكبرى لعبور القوافل. ويتمركز إلى أعلى درجة في عدد صغير من المناطق الحضرية ويجد تعبيره النهائي في جزائر القرن السابع عشر.[153] كانت القرصنة البحرية ممارسة معروفة في جميع بلدان البحر الأبيض المتوسط وكان يتعاطاها المسلمون والمسيحيون ولا يوجد ما يثبت احتكار المسلمين لنشاط القرصنة في البحر الأبيض المتوسط حتى خلال القرن السادس عشر؛ وإن هذا النوع من النشاط قديم، قدم التاريخ، وهو موضوع عناية بسبب الولع بالانتقام ليس إلا. كان نشاط القرصنة في البحر المتوسط يبدو أمرا عاديا مثل الحياة؛[154] وهكذا لا يمكن فصل التاريخ عن اقتصاد مدينة الجزائر على غرار العواصم الأخرى المجاورة والتي تمارس نشاط القرصنة

البحرية. لكن كيف تم التوصل إلى استدامة هذه الممارسة ونجاحها الذي يعلي تفوق البحرية العاصمية؟

وبالفعل فاللجوء إلى القرصنة، الذي كان في البداية عملا حربيا مقدسا، كان أيضا المخرج الوحيد لمسلمي شمال إفريقيا لإيجاد مكانة في البحر الأبيض المتوسط؛ فبالنسبة للمسلمين هناك غياب البحرية التجارية التي حرَمَهم منها المسيحيون وعرقلوا تطور الأسطول التجاري أو التجارة المباشرة على الأرض المسيحية. كما منعوا الأتراك والرياس من نقل البضائع قصد الإبقاء على بلدان المغرب تحت سيطرة مرسيليا؛[155] وانطلاقا من إقصاء المسلمين، من أي نشاط بحري، بدأت القرصنة البحرية في التطور فهي نشاط منظم يتميز بانضباط صارم (فالطواقم محكوم عليها بالنجاح أو الغرق (الموت) وهكذا أصبحت القرصنة البحرية مربحة؛ ولقد جرى تعميم القرصنة البحرية من طرف الإدلس وتصنيعها من طرف الأتراك واليونانيين وتجديدها من طرف المارقين (المرتدين).[156]

أصبحت القرصنة، برأي جميع المؤرخين، المصدر الرئيسي لعائدات الجزائر: فالقراصنة كانوا يتكونون من الجزائريين وبعض الذين اعتنقوا الإسلام والذين يصفهم المسيحيون "بالمرتدين" أو حسب الصيغة المكرسة عند" HAEDO " أتراك المهنة؛ فالحملات غالبا ما تتوج بالنجاح، إذ تتم قيادة السفن الشراعية بانضباط صارم الأمر الذي سمح للجزائر بالاغتناء، حيث تعم الجزائر حالة من الارتياح لدى عودة القراصنة؛ مما يمكن تجار الجملة من شراء العبيد والسلع التي يعود بها القراصنة؛ ويتمكن التجار من البيع للوافدين، الذين لا يقومون سوى بالأكل والشرب واللهو،[157] يبيعونهم كل ما يوجد بمتاجرهم

تراجع القرصنة وانحطاط المدينة

يبدو، من الوهلة الأولى، أن العلاقات بين تراجع نشاط القرصنة وانحطاط المدينة جعلت الجزائر، ابتداء من النصف الثاني من القرن الثامن، علاقة قائمة على تجاهل مدينة الجزائر، خلال العهد التركي، لعمق الجزائر وصرف اهتمامها إلى البحر فقط؛ وهذا ما يفسر إلى أي مدى كانت تربط مصيرها بنشاط القرصنة، مثلما رأينا، ذلك النشاط الذي كان يوفر للمدينة الثروة والسلطة.

إن هذه التبعية المقصودة جعلت الجزائر ابتداء من النصف الثاني من القرن 18 تنتقل تدريجيا من البذخ الذي تعودت عليه طيلة قرنين من الزمن، إلى الانحطاط، بفعل تضاؤل نشاط القرصنة وبالتالي نضوب موردها الرئيسي من العائدات. بيد أن هذا التراجع، لا يجد تفسيره الكامل لدى المؤرخين؛ بل تعود جذور هذا الانحطاط إلى مجموعة من الوضعيات المعقدة والمتزامنة والتي يبدو أنها كانت في غير صالح الجزائر؛ وبالفعل، ففي الفترة التركية كان المؤرخون الإسلاميون قلة أو غير موجودين ولا معروفين. أما بالنسبة للمؤرخين الأوروبيين، فقد كانت موضوعاتهم الرئيسية، تتمثل في البكاء على الأسرى، في حين كان قلة فقط من مؤرخي الفترة الاستعمارية، لا يحترمون التعليمات الرسمية.[165]

ويمكن تلخيص هذه الوضعيات، من خلال بعض القراءات التي تشير إلى انحطاط الجزائر؛ ويتعلق الأمر بالنسبة لنا بحالة وعوامل الانحطاط من وجهة نظر خارجية (مواقف وأهداف البلدان الأوروبية المتحالفة ضد الجزائر) كمؤشر على قُطّاع الطرق؛ ومن وجهة نظر داخلية (الصدمات السياسية والاضطرابات الاجتماعية) إذ لم يكن نهاية نشاط القرصنة يشجع على وقف التدهور الذي بدأ مساره.

المعالم الثقافية التركية والمشروع الاستعماري

بعد نشاط مكثف للقرصنة، حيث أظهر العنصر البربري تفوقه في البحر، أصبح يُنظر إلى الجزائر على أنها بلدٌ عدو وذلك على أكثر من صعيد: فالجزائر، ذلك البلد المسلم الذي يشتهر بصعوبة غزوه وبأنه قلعة الباب العالي في المغرب، ينام على عدة كنوز مذاكمة بعد عدة قرون من سيطرة القرصنة؛ فهي إذن، وجهة لقطّاع الطرق والقراصنة الذين زرعوا الرعب في البحر الأبيض المتوسط ولذا لن يكون الخلاص منها إلا بتنظيم حملة ضدها.

أوجد دُعاة الحملة جملة من "الأدبيات التركية" بفضل كتابات رجالات الدين التي كان الهدف منها جمعُ أكبر قدر من الأموال في مهمتهم لافتداء الأسرى والمغامرين وهي كتابات تحمل من المبالغة ما يجعل من الجزائري كتلة من العيوب.

وبالنسبة لرجالات الدين، فلم يكن يهمهم غير مصير الأسرى المسيحيين مما دفعهم إلى اللجوء إلى خيالهم، المصاب بالهذيان أحيانا، وبالفعل فخلال القرن الثامن عشر ذاع صيت بربرية الدولة الجزائرية في فرنسا وأوروبا، حيث لم يكن ليشجع المسافرين إليها الذين ينتظرهم "ألف موت" سواء من طرف سكانها أو حيواناتها المفترسة.[166]

وفيما يلي ما يتضح من بعض المؤلفات والموسوعات والمعاجم في تلك الفترة التي تميزت بالكثير من الأحكام القيمية:

لقد رسموا صورة مُشينة لسكان شمال إفريقيا، في نهاية القرن الثامن عشر، تُبرز العيب الأول فيهم ألا وهو الفسق والكسل؛[167] ثم الدعوة إلى التخلص من البربرية التي تشكل العائق الأكبر أمام أوروبا للوصول إلى هذا البلد الخصب والمتعدد الموارد

الاقتصادية ولأكثر ملاءمة للمسيحية. ولقد استمرت هذه الصورة إلى غاية الغزو. وباجتماع الأمم الغيورة على حرية البحار، في حملة سياسية موجهة ضد عصابات اللصوص الإفريقية، يكون صبرها قد نفذ إزاء اللصوصية فقط.[168]

لم يخمد أثر هذه الأدبيات حتى خلال الفترة الاستعمارية؛ ففي بداية القرن العشرين أنجز L.BERTRAND كتابه الاستعماري الذي أطلق فيه العنان للحلم في بعث "عرق جديد" في البلاد (الجزائر) قصد إحياء إفريقيا الرومانية؛[169] وبالنسبة لأدبيات تلك الفترة، فإن هوية سكان إفريقيا الشمالية يجب أن تختفي؛ كما نجد، من جهة أخرى، LAUGIER de TASSY الذي يرفض هذا الطرح مدفوعا بسوء نية مؤرخي تلك الفترة فيما يتعلق بتقييمهم للبلد. فلم يتأخر في تحذير القراء، بصورة واضحة، من أن أغلب المسيحيين على دراية بالأتراك والمحمديين ولكنهم يفتقدون المصطلحات التي تعبر عن حقدهم إزاء تلك الشعوب وأن الكثير منهم كان مدفوعا بتقارير القساوسة الإسبان الذين ينشرون الأصوات النشاز لرفعة من يريد أن يكون خلاصه على أيديهم.[170]

إنها إذن الصورة المشكلة عن طريق الأدبيات "التركية" التي تدعم الحاجة إلى الانتقام من الهيمنة البحرية الجزائرية؛ ومن هذه الصورة، المُفتعلة جماعيا، وُلد مشروع الغزو والتوسع والحاجة إلى احتلال ثم استغلال هذه البلدان.

وعن طريق هؤلاء الدعاة بدأ المشروع الاستعماري في التشكّل، ابتداء من انحطاط الجزائر الذي ساهم في تسريعه، وكان هذا المشروع جاهزا للإنجاز عندما يحين الأوان؛ ففي ذلك الوقت كان الأمر يتعلق بتقليص نشاط القرصنة من خلال معاهدات سلم أو عن طريق دفع جزية أو الاتفاق عليها ضمن المعاهدات

الدبلوماسية؛[171] ولقد تمت هذه العملية خلال القرن الثامن عشر بالموازاة مع عمليات القصف التي تعرضت لها الجزائر إلى غاية 1830؛ ويوعز المؤرخون الأوروبيون انحطاط الجزائر إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ويحصرون مظاهر الانحطاط، في غالب الأحيان، في تراجع نشاط القرصنة غير أن هذا الطرح لا يفسر كامل مسار الانحطاط بل بدايته فقط. وقصد الإلمام بهذه الحركة الشاملة، تجدر الإشارة إليها، كأزمة ميزت نهاية النظام العثماني بالجزائر؛ فالأزمة مرادفة لأزمة النظام السياسي والحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد التي تتجلى في مظاهر الانحطاط إذ تبقى القرصنة البحرية العنصر المهيمن في هذه الأزمة أما بقية العوامل فقد زادت في تضخيمها.

لقد مست نهاية العهد العثماني، جميع المدن التركية، نهاية كانت لفائدة نظام آخر بصدد الولادة، يتمثل في الرأسمالية والاستعمار، وكما يعلم الجميع.. ستشمل الهيمنة الاستعمارية جميع بلدان المغرب وبالدرجة الأولى.. الهيمنة على الجزائر.. فهذا البلد طالما كان الذريعة.. العادية، والأكثر وضوحا في المشروع الاستعماري في العقول وحتى بعد الاستقلال. لقد وُصف تاريخ الوصاية السابق عن 1830 بالشاذ في محفل الأمم.[172]

إلى أي حد يمكن لهذا البلد، في نظر المؤرخين، أن يتحمل بالرغم منه حركة التاريخ التي رسمتها له أوروبا الثورات والأزمات؟ ففي حالة الجزائر إن مردّ الانحطاط هو تضافر عدة وضعيات مختلفة ومعقدة شجعت على تدهوره. ولقد اعتمدنا جانبين مختصرين من العوامل التي تلخص الجزائر كما ينظر إليها من خلال انحطاطها في العهد التركي.

عوامل الانحطاط

أ) العوامل الخارجية: فالجزائر، بالنسبة لأوروبا، لا تزال حينذاك محل حذر وريبة وهي الهدف الذي يتعين تدميره حتى ولو استدعى الأمر تحالف عدة بلدان؛ وذلك ما تم الاتفاق عليه في مؤتمري فيينا وإكس لا شابيل.[173] فلقد شهدت الجزائر، التي كانت موضع استهداف دائم من أوروبا، عدة محاولات للاحتلال انتهت جميعها بالفشل وكلفت أصحابها غاليا مما جعل المدينة تتعرض لاعتداءات بحرية.[174]

وتتلخص أهمية هذه المناورات، من 1622 تاريخ أول قصف بريطاني إلى غاية 1830، في تعرض الجزائر لأكثر من عشرين هجوما من طرف الإنجليز والفرنسيين والإسبان وحتى الدانمركيين والأمريكيين وغيرهم مثل هجوم ديكسن إيستيري والحملة الإسبانية لـ REILL سنة 1775 وخاصة حملة اللورد إيكسومت سنة 1916 والتي استخدمت فيها وسائل ضخمة وخلفت خسائر معتبرة.

طورت بلدان أوروبا، تقنيات جديدة للملاحة البحرية دخلت حيز التنفيذ بسرعة، وهو ما لم يكن بحالة الجزائر؛ وانطلاقا من هنا أصبحت القرصنة تشكل خطرا وأقل مردودية. فالقرصنة لا يمكن في الأخير أن ترافق التقدم المسجل وبالتالي خسرت فاعليتها؛[175] ولقد أدى تواتر قصف مدينة الجزائر إلى تقليص عائدات القرصنة في الوقت الذي زادت فيه المؤامرات الأوروبية.[176] فالجزائر، وبالرغم من المعاهدات التي تربطها بالعديد من الدول الأوروبية، كانت عرضة لحصار دائم مما أدى إلى تراجع تدريجي لجميع الأنشطة.

ب) العوامل الداخلية: هناك ثلاثة وضعيات، ستزيد من خطورة انعكاسات الانحطاط؛ وهي علامات الضعف السياسي والاجتماعي التي ساهمت مباشرة مثل:

نظام الحكم؛ الذي كان يتميز باستقراره العام بالرغم من "الثورات" الدموية أحيانا بين المجموعات المهيمنة؛ أما في جموده فكان هذا النظام "ذا توازن هش يضمن بقاءه بالارتكاز على ميزان القوى بين طائفة الرياس، الثرية، وبين الانكشاريين وهو توازن يضمنه طابع التبعية الموجودة بين المجموعتين ذات المصالح المتكاملة.

وعلى سبيل المثال كان التونسيون شركاء في السلطة، ففي الجزائر فقط لم يتم اللجوء إلى التجنيد المحلي؛[177] الأمر الذي أضحى خطأ لا يغتفر عندما أصبح النظام في أزمة. وهكذا وبالرغم من الازدهار الهام ونظام الدفاع الذي وُضع لمدة طويلة تحت التجربة... هل يمكن القول إن الجزائر قد أخطأت من خلال نظام الحكم الذي اعتمدته والذي لم يعرف أية تغيرات ملحوظة خلال ثلاثة قرون من التواجد التركي؟

إن هذا النظام الذي يصفه البعض بأنه نظام "عنصري"،[178] في ممارسة السلطة، كان قد وصل إلى مستواه النهائي من الأزمة مع نهاية القرن الثامن عشر؛ ويعود سبب ضعفه إلى عدم اهتمامه بالداخل واستمراره في النظر صوب البحر بدليل الأزمة السياسية التي عرفتها المدينة أي المجتمع السياسي مع توالي الدايات وثورات القصر. لقد انتفضت الميليشيات وأطاحت بالدايات بسبب مقالبهم.[179] فالدايات يتعاقبون، بيد أن الثورات السياسية لا تؤدي إلى تغييرات في هيكل الدولة وكذلك هو شأن السكان الذين لا يهتمون إطلاقا، لأنهم غير مورطين. وبعد هذه الفترة من

"الثورات" ومع التقدم في القرن الثامن عشر نشهد بعض الاستقرار يظهر على الخصوص في نقل السلطة؛ فالداي ما قبل الأخير انتقل من قصره من الجنينة، في 1816، للإقامة في القصبة وقام بتجنيد قوات محلية واستطاع لأول مرة أن يُعيّن، قبل وفاته، خليفته الداي حسين.[180]

ودائما في إطار العوامل الداخلية للانحطاط، أدى تقلص الموارد المالية، المتأتية من البحر، بالدولة إلى اتخاذ إجراءات اقتصادية صارمة زادت انعكاساتها في تسريع وتيرة الانحطاط؛ فأخضع السكان إلى ضرائب ثقيلة أكثر مما تعوّدوا عليه وأدى ذلك إلى حدوث اضطرابات في العديد من مناطق البلاد في نهاية القرن الثامن عشر. ومن جهة أخرى فالدولة التي كانت تراقب مجمل عمليات التجارة الخارجية وجدت نفسها مجبرة على مضاعفة الاحتكارات قصد ضمان أكبر قدر من العائدات.

سمحت الدولة، من خلال هذه الاحتكارات، لليهود ليفورن أن يغتنموا الفرصة ويتحولوا إلى شخصيات سياسية قوية في ساحة الجزائر؛ ففي القرن الثامن عشر أصبحوا رجالات بنوك للدايات ووسطاء رسميين بين الوصاية والدول الأوروبية. ولقد لعب اليهود دورا معتبرا وأحيانا رئيسيا في الشؤون الجزائرية وعلى سبيل المثال، وطيلة 25 سنة 1780-1805، كان نفتالي بوجناح يتصرف في موارد البلاد ويُسيّر، بالإضافة إلى مصالحة، السياسة الداخلية والخارجية للوصاية.[181]

ويعود انحطاط الجزائر بسبب الكوارث الطبيعية والأمراض والأوبئة، التي بدأت في الظهور حوالي سنة 1786 مع وباء "الطاعون" الذي استمر قرابة عقد من الزمن، وأدى إلى هلاك

ثلث السكان[182] ولقد بدت هذه الكارثة كانهيار للمدينة مقارنة بما كانت عليه في القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر.

وهكذا؛ وفي ظرف ثلاثين إلى خمسين سنة تراجع عدد سكان الجزائر العاصمة من أكثر من 100 ألف نسمة إلى 60 ألف نسمة ثم إلى 40 ألف، في حوالي 1830، وانطلاقا من هذه الوضعية المعقدة، التي تطرقنا إليها باقتضاب والتي عاشتها الجزائر في النصف الثاني من القرن السابع عشر واستفادت منها البلدان الأوروبية، تمكنت من وضع حد للقرصنة البحرية التي كانت الهدف الرسمي من وراء المناورات البحرية التي يتوقف عليها الرفاه الاقتصادي والسياسي للمدينة؛ وفي مرحلة ثانية إيجاد شعور بوشك تعرض الجزائر إلى هزيمة وذلك بقيام البلدان الأوروبية بقصف للمدينة عدة مرات وهي اعتداءات توّجت بغزو الجزائر في 1830.

الجزائر، المرسى والقلعة في القرن السابع عشر

حواشي*

1 Secrétariat social d'Alger « Monde rural et monde urbain, collection information rapide ALGER 1969 p.32
2 EGRETAUD (M), «Réalité de la nation algérienne», Paris, éditions sociales, 1961, p.21
3 BELHAMISSI (M) » Histoire de la marine algérienne, Alger, (1516-1830) ALGER, ENAL, 1983, pp.13et14
4 BELHAMISSI (M) Idem
5 Cf.: notamment, COLOMBE (M), Initiation à l'Algérie,BOYER (P), La vie quotidienne à Alger, ESQYER (G), Alger et sa région etc.…
6 Baghli (s.a) El Djazair, art et culture, Ministère de l'information, Alger, 1982,p.14.
7 ESQUER (G) Alger et sa région, Paris, Arthaud, 1957, p.34
8 PASQUALI, Alger, son histoire et son urbanisme, in Encyclopédie mensuelle d'outre-mer, juillet 1952, p.199
9 PASQUALI Idem
10 MESLEM (L) Formation et évolution de la Médina, in Casbah, OREF-GAM, Mai 1983, p.19à22
11 PASQUALI Alger…..op. cit. p.198
12 EL BEKRI, Géographe du 11°s. Description de l'Afrique septentionnale, trad.Par M.G de Slane, Paris, Maisonneuve, éd .de 1965,405 p.
13 Yver (G) ALGER, in Encyclopédie Islamique, volume, op. cit., Paris, éditeur, p.261
14 AYER (G) Idem p.261
15 PASQUALI (E), Evolution de la rue musulmane d'El Djazair DOCUMENTS ALGERIENS, N° 75,1955p.179
16 PASQUALI (E), op. cit., p.175
17 IBN HAWKEL Commerçants et voyageurs, in YVER, p.260
18 PASQUALI (E), op. cit., p.179
19 PASQUALI (E), Idem
20 YVER (G), op. cit., p.260
21 JULIEN (C .A) Histoire de l'Algérie contemporaine, la conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871), Paris, PUF, 1979, p.253.
22 MAS LATRIE Traités entre chrétiens et arabes, p.330-333, in YVER, op. cit., p.260

* حفاظا على الدقة العلمية تركنا عناوين المصادر والمراجع بلغتها الأصلية حتى يتمكن القارئ والباحث من الرجوع إليها.

23 YVER (G), op. cit.
24 BERQUE (J) L'intérieur du Maghreb, XV°-XIX° s. Paris, Gallimard, 1978, p.208
25 JULIEN C .A., op. cit., p.256
26 MESLEM, op. cit. « Seule l'attention se porte sur la description du système défensif » De sorte que les croquis anciens de cette époque d'Alger sont très significatifs de ces thèmes, la ville est toujours caractérisée par ses canons sa Casdah et ses remparts.
27 THAILARD (Ch), L'Algérie dans la littérature Française, Paris, Librairie E. Champion, 1925
28 EGRETAUD (E), Réalité de la nation algérienne, Paris, édition sociales, 1961, p.20
(29) BOYER (P), La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française, Paris, Hachette, 1962, p.17 (30) JULIEN (C .A), op. cit., p.250
31 JULIEN (C .A), op. cit., p.254
32 JULIEN (C .A), op. cit., p.256
33 HAMADANI (A), La vérité sur l'expédition d'Alger, Paris, Ballard, 1985, p.256
34 JULIEN (C .A), « A l'aide des ruines de Rusguniae, il construit un mole long de 200 m,large de 25m,et haut de 4m, qui réunit la ville aux îlots assemblés par un terre plein .Ainsi fut crée le port d'Alger » p.256
35 ALGER-REVUE, Le port d'Alger, Alger, décembre 1955, p.55
36 JULIEN (C .A), op. cit. p.256
37 BOYER (P), La vie quotidienne à Alger, op. cit. p.101
38 Beylerbey est le premier titre attribué à KHEIR EDDINE
39 JULIEN (C .A) op. cit. p.266
40 AGERON (C.R) Histoire de l'Algérie contemporaine, Que sais-je ? Paris, PUF, 1964, p.7
41 MONLAU (M) Les Etats Barbaresques, Paris, PUF, 1964, p.117
42 JULIEN (C .A), op. cit. p.274
43 HAMADANI (A) La vérité sur l'expédition d'Alger, op. cit. p.20
44 EGRETAUD (M) réalité de la nation algérienne ? P.41
45 AGERON (C ;R) op. cit. p.18
46 HAMADANI (A) op. cit. p.18
47 BERQUE (J) op. cit. p.407
48 JULIEN (C .A), op. cit. p.259
49 MONLAU (M) op. cit. p.119
50 RAYMOND (A), les grandes villes arabes à l'époque ottomane, Paris, Sindbad, 1981, p.39
51 SANSON (H), op. cit. p.29
52 MONLAU (M) op. cit. p.105

53 MONLAU (M) op. cit. p.105 « soit 200 à 400 cargaisons de céréales par an, et Arzew expédie jusqu'à 40 000 bœufs en 1814 à l'armée anglaise.
54 BOYER (P) op. cit. p.400
55 BERQUE (J) op. cit. p.400
56 BOYER (P) op. cit. p.69
57 RAYMOND (A) op. cit. p.119
58 RAYMOND (A) op. cit. p.71
59 RAYMOND (A) op. cit. p.79
60 RAYMOND (A) op. cit. p.80
61 ZGHAL (A), STAMBOULI (F), La vie urbaine dans le Maghreb précolonial,in Villes et sociétés au Maghreb CRESM,Aix en Provence - Paris,1974,p.191-213
62 RAYMOND (A) op. cit., p.119
63 RAYMOND (A) op. cit., p.119
64 RAYMOND (A) op. cit., p.122
65 RAYMOND (A) op. cit., p.121
66 RAYMOND (A) op. cit., p.124
67 RAYMOND (A) op. cit., p.135
68 ZGHAL (A), STAMBOULI (F), op. cit. p.198
69 RAYMOND (A) op. cit., p.146
70 RAYMOND (A) op. cit., p.146
71 SHALER (W) p.52
72 DEVOULX Les édifices d'Alger, in Revue africaine numéros de 1860à1870
73 RAYMOND (A) op. cit., p.1
74 LETOURNEAU (R), L'évolution des villes d'Afrique du Nord au contact de l'occident, in Annales de l'Institut d'études orientales T.12, 1954, pp.199/222
75 PASQUALI (E) Evolution de la rue musulmane op. cit. p.180, in Doc. algériens n°75, série culturelle, Alger, 1955.
76 Voir notamment : VENTURE DE PARADIIS, Alger au 18° s. HAEDO, topographie…, Le Père DAN… BERQUE l'Intérieur du Maghreb, MONLAU, LES 2TATS Barbaresques etc.…
77 YACONO (X), Peut-on estimer la population Algérienne en 1830, in Revue Africain en°93,1954,
78 HAMDANE (K) LE MIROIR, Aperçu historique sur la Régence d'Alger, Paris, 1833, Sindbad, 1985, p.38
79 LACOSTE (Y), NOYSHI (A), PRENANT (A) L'AGERIE, passé et présent, Paris, édition sociales, 1960
80 PRENANT (A) ,L'héritage urbain précolonial algérien,réalités, caractères majeurs,significations actuelles,in « Les systèmes urbains », Séminaire international,Médéa,19,21 novembre 1985,p.54

81 HAMDANI (A), op. cit. p.178
82 VENTURE DE PARADIS, Alger au XVIII° siècle. Tunis, réédition Bous lama,1981
83 BOYER (P), op. cit., p.147
84 YVER (G), op. cit., p.263 et 264
85 YVER (G), op. cit., p.263 et 264
86 YVER (G), op. cit., p.263 et 264
87 LETOURNEAU (R) La ville musulmane Nord-africaine sur le terrain, Alger, Bibliothèque de l'IESTE, Alger, 1957
88 MARCAIS (G) La conception de ville dans l'Islam, in revue d'Alger,n°30,1945,p.525
89 ZGHAL (A), STAMBOULI (F), op. cit. p.206
90 LAUGIER DE TASSY, Histoire du Royaume d'Alger, Amsterdam, de Sauzet, 1725
91 JULIEN (C .A), op. cit., p.265
92 RAYMOND (A), op. cit., p.50
93 MONLAU (M), op. cit., p.107
94 MONLAU (M), op. cit., p.107
95 BOYER (P), op. cit., p.199
96 MONLAU (M) op. cit. p.106
97 GUIAUCHAIN Alger, éditeur, Alger, 1909, p.87
98 GAUDISSARD Alger barbaresque, Baconnier, Alger, 1951, pp.58 et 24 lithographies hors texte, Préface de MARCAIS (G) p.3
99 BERQUE (J) L'intérieur du Maghreb, op. cit. p.207
100 BERQUE (J) L'intérieur du Maghreb, op. cit. p.208
101 GRAMMONT (H de), Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830), Paris, E. Lerroux, 1887,420
102 LESPES (R) Alger, Etudes de géographie et d'histoire, Paris, Alcan, 1930 (818p), p.166
103 MARCAIS (G), Autres Histoire de l'Afrique du Nord Française,Paris -Lyon,1937,p.211
104 MARCAIS (G), Autres, Idem
105 JULIEN (C .A) Histoire de l'Afrique du Nord, Paris - Lyon, t.1, p.287
106 Ceux qui ont eu à étudier ces remparts, distinguent ceux d'Icosium (ville romaine), ceux de l'Alger Berbère et ceux de l'Alger turc.
107 LESPES (R), op. cit. p.114
108 YVER (G), op. cit. p.261
109 LESPES (R), op. cit. p.115
110 LESPES (R), op. cit. p.118.
111 Au nombre de cinq (5), les portes d'Alger étaient :
a) BAB DJADID (la porte neuve) au sud ouest et au pied de la casbah

b) BAB AZOUN au sud, était la porte la plus importante, la plus fréquentée, d'où partaient les routes vers l'intérieur du pays vers l'est,donnant sur la mer.
c) la porte de la pêcherie ou de la DOUANE à l'est, sur la mer.
d) BAB EL DJAZIRA (porte de l'Ile) ou de la guerre sainte, s'ouvrant sur le mile par ou partaient les Reis et la porte de BAB AL OUED au nord.
112 Au nord de la ville étaient :le BORDJ EL EULDJ ALI, fort dit des 24 heurs construit en 1568-1569, BORDJ DJEDID (fort neuf) bâti 1801-1803 et plus loin, le fort des FEVES,et enfin, et FORT DES ANGLAIS 1669-1670 . au sud,les forts étaient aussi multiples :le fort de BAB AZOUZ en 1661,élevé à la suite d'une tentative de débarquement clandestin des chevaliers de Malte (fort blanc) et plus loin vers le sud-est étaient les forts du HAMMA,FORT DE L'EAU.
113 LESPES (R), op. cit. p.115.
114 (18) PASQUALI (E), op. cit., p.181 (19) BEQUE (J) op. cit. p.417
115 RAYMOND (A), op. cit., p.42
116 LESPES (R), op. cit., p.114
117 AUMERAT La propriété urbaine à Alger, in Revue Africaine Volume n°42 Année 1898, pp.168-201
118 LETOUREAU (R) La ville musulmane N -africaine, op. cit., 11-12
119 BOYER (P), op. cit., p.50
120 VALENSI (L) Le Maghreb avant la prise d'Alger, 1790-1830 Paris, Flammarion, 1969, p.52
121 BOYER (P) op. cit. p.51
122 BOYER (P) op. cit. p.56
123 LESPES (R), op. cit. p.1
124 BOURDIEU (P) Sociologie de l'Algérie, Paris, PUF, Que sais-je ? N°802, 1963, p.59
125 LETOUREAU (R) op. cit.p.37
126 VALENSI (L) op. cit.p.52
127 VALENSI (L) op. cit.p.52
128 PASQUALI (E) Evolution de la rue musulmane op. cit. p.190
129 PASQUALI (E) Idem p.190
130 PASQUALI (E) Rue musulmane op. cit. p.180.
131 KADDACHE (M) La Casbah d'Alger sous les Turcs « Documents Algériens » Alger, 1951, p.210
132 PASQUALI (E) Rue musulmane op. cit. p.190
133 SHALER (W) Esquisse de l'Etat d'Alger, trad. Bianchi, Paris, Ladvorat, 1830,406p
134 PASQUALI (E) Rue musulmane op. cit. p.190
135 GUIAUCHAIN op. cit. p.96
136 VALENSI (L) op. cit.p.52

137 VALENSI (L) op. cit.p.52
138 GUIAUCHAIN op. cit. p.87
139 LESPES (R), op. cit. p.171
140 SHAW (Dr) Voyage dans la régence d'Alger, Paris, Merlin, 1830, p.93
141 LESPES (R), op. cit. p.166
142 LESPES (R), op. cit. p.171
143 LESPBET (D) La Casbah d'Alger, gestion urbaine et vide social, Alger, OPU, 1985, p.31
144 LESPES (R) « Le revêtement des murs en carreaux de faïence, les sculptures et les marqueteries des portes, les menuiseries découpées les lambris de plafonds de cèdres enluminés de peintures délicates »p.173
145 VALENSI (L) op. cit.p.53
146 MARCAIS (G) op. cit.p.211
147 Voir notamment : LAUGIER DE TASSY, IBN HAWKEL, YVER G ; SHALER (W) BERQUE(J)
148 BRAUDEL (F) La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II ,3° édition, Paris, 1976, Volume II, pp.203-205
149 MONLAU (M) Les états barbaresques, op. cit. p.89
150 BOURDIEU (P) Sociologie de l'Algérie, op. cit., p.54
151 BOYER (P) La vie quotidienne, op. cit. p.184
152 BEQUE (J) Le Maghreb intérieur, op. cit. p.399
153 MONLAU (M) op cit p.89
154 MONLAU (M) op cit p.20-21
155 VALENSI (L) op. cit.p. 62-63
156 MONLAU (M) op cit p.119
157 HAEDO in Revue Africaine1870, p.496
158 MARCAS(G) autres, l'Afrique du Nord française dans l'histoire, Paris-Lyon, 1937, p.212
159 MONLAU (M) op cit p.93
160 JULIEN (C .A), op. cit. p.282
161 MONLAU (M) op cit p.89
162 MONLAU (M) op cit p.95
163 MARCAS(G) Manuel d'art musulman : l'architecture, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, et Sicile, Paris, éd. Picard, 1926-27, Vol.1p.424
164 GRAMMONT (H de), Histoire d'Alger…op cit p.238-240
165 EGRETAUD (M) op. cit., p.23
166 COLOMBE (L) L'Algérie turque, in initiation à l'Algérie, op. cit., p.99
167 VALENSI (L), op. cit., p. 12
168 VALENSI (L), op. cit., p. 13
169 BERTRAND (L) Le sang des races, Paris, Fayard, 1899

فهرس

مدخل 7

الفصل 1:
الجزائر ما قبل الاستعمار: ميلاد المدينة وتاريخها 13

1. في أصول مدينة الجزائر 17

2. حكومة المدينة 30

3. الهندسة الحضرية والفضاءات الاجتماعية 53

4. من ازدهار المدينة والقرصنة إلى انحطاطها 68

الفصل 2:
مدينة الجزائر والصدمة الاستعمارية 91

1. مملكة فرنسا ودولة الجزائر 95

2. الحملة العسكرية واحتلال المدينة 108

3. من الإحتلال العسكري إلى استلاب الإرث الاجتماعي 129

4. خراب الاقتصاد الحضري والفراغ الاجتماعي 157

العربي ايشبودان

مدينة الجزائر تاريخ عاصمة

ناقش المؤلف العربي إيشبودان، سنة 1995 بجامعة السوربون باريس ٧، أطروحة في علم الاجتماع الحضري لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآداب والعلوم الإنسانية، حول موضوع «مدينة الجزائر كنظام اجتماعي حضري».

التحق المؤلف بجامعة الجزائر للتدريس، بعد إقامة طويلة قضاها في باريس للدراسة والبحث في ميدان الفضاء العمراني.

«إن العالم الحضري، يقول المؤلف، يفرض نفسه في المسائل الوطنية الكبرى، لذا يتعين علينا الاستيعاب الفعلي للتراث الغني المتمثل في تاريخنا».

ينطلق عمل الأستاذ إيشبودان من مشروع طموح، يدرك في الزمان وفي المكان حقيقة تحول فضاء مدينة الجزائر إلى عاصمة وطنية. يقول عنه أستاذه المشرف، بيار فوجيرولاس: «لقد وُفّق بذكاء في عرض تاريخ الجزائر العاصمة من خلال تواتر لحظاته التاريخية الكبرى. واستعرض في كل واحدة منها وظائف المدينة العاصمة بكل وضوح وثمن أيضا كل ما له علاقة بالفضاء وبالإقليم وبالحي».

يعتبر هذا العمل مساهمة بارزة في حقل البحث السسيولوجي وتاريخ المدن وهو من دون شك مرجعا مهما في دراسات علم الاجتماع الحضري.

اعتمد هذا العمل مسعا واضحا وأسلوبا صارما يعكس عاطفة المؤلف إزاء مدينته، وبالتالي فهو كتاب جدير بالقراءة وقصة ممتعة موضوعها الجزائر مدينة وعاصمة. يسعدنا في دار القصبة أن ننشر هذا المؤلف حول سسيولوجية مدينة الجزائر و تاريخها باللغة العربية بعد أن نشر باللغة الفرنسية في طبعة أولى.

ردمك : 7- 626- 64- 9961- 978

9789961646267

دار القصبة للنشر

من ملابس ومئون. كانت القرصنة البحرية، إذن، ذات مردود ومن الأهمية إلى درجة أنها تشكل أهم مصدر لصناديق الدولة؛ فهي نشاطٌ مربح ومصدر لجلب السكان من جميع الأمم وكانت المدينة تحتضن في القرن السابع عشر أكثر من مائة ألف نسمة يمثلون مختلف الأجناس ويكاد الجميع يجدون منصب عمل ضمن طاقم البحرية العاصمية.[158]

أورد MONLO، في كتابه عن البربر، بعض اللحظات الزاهية بخصوص العائدات بسبب العدد الأسرى ونظرا لأهمية الغنائم التي كانت معتبرة في الجزائر؛ ولقد كانت سنة 1615 /1616 مؤشرين على وجه الخصوص إذ شهدتا تحقيق ما يتراوح بين اثنين إلى ثلاثة مليون جنيه وحجز 80 باخرة وأسر 1331 لفرنسا وحدها وذلك في الفترة الممتدة بين 1630 و1634، إذ بلغت عائداتها أكثر من خمسة ملايين جنيه.[159]

الملاحظ، هنا، هو أن القرصنة البحرية تخدم الكثير من تجار الجملة الأوروبيين وبعض اليهود من الذين أقاموا جسرا بين الجزائر وبعض المدن الأوروبية؛[160] وهكذا؛ فالقرصنة البحرية تستدعي التجارة بدلا من صدّها غير أن أنشطة الرياس (أمراء البحر) تبقى، في جميع الحالات، هي "الباعث" على ازدهار مدن القراصنة.

وبذات الطريقة، تقف القرصنة وراء دفع الاقتصاد، وتحقيق جرعات من الفوائد، ولاحقا استعادة الرياس والقراصنة الأموال من حولهم، مما ساهم في خلق الوظائف وتنشيط عملية البناء، وتمكين مجمل السكان من الثراء من خلال المتاجرة؛[161] فالفوائد، التي يقال عنها إنها هامة، يذهب جزء منها إلى خزينة الدولة ومثلما سنرى فلقد استُهدفت الجزائر عدة مرات وصارت هدفا

فدايا غير معلن لغزو سنة 1830 أما الجزء الأخر من الفوائد فيوجه لصيانة وتطوير المدينة. وتذهب الأرباح الكبيرة الناجمة عن القرصنة وتدفق أموال الفديات في النهاية إلى تمويل تجهيزات مدن القرصنة ويصب الباقي في خزينتها.[162]

وبفضل الأرباح المتأتية من القرصنة مرت الفترة التركية، بالنسبة للجزائر، بدون انتفاضات تذكر بالرغم من ضعف عدد الأتراك مقارنة ببقية السكان.

فإلى جانب البذخ والهدوء تميزت الفترة التركية أيضا باهتمام الدولة بضمان النظام وفرض ضرائب خفيفة على السكان كما ساهمت بسخاء في صيانة الأعمال الخيرية وترقية المرافق العمومية؛ ولقد تمكنت المدينة، خلال هذه الفترة، من العيش في ازدهار كما ضمنت لنفسها مكانة مرموقة في حوض البحر الأبيض المتوسط. بيد أن النصف الثاني من القرن الثامن عشر سجّل انحطاط القرصنة البحرية.

كانت البلدان الأوروبية، المسماة "الدول الثانوية"، تحصل من الجزائر على حماية سفنها بدفع جزية سنوية، نقدا أو عينا، كما كانت الدول الرئيسية تفعل نفس الشيء.[163] وكانت هذه البلدان تسهر على شراء رضا وعفو الداي وديوانه بتقديم الهدايا ينافسها في ذلك القناصلة بسخائهم. غير أن القرصنة كانت قد بدأت في الأفول بسبب المعاهدات العديدة التي أبرمتها دولة الجزائر مع البلدان الأوروبية وبسبب عوامل أخرى تقف وراء تراجع القرصنة. فهل يمكن اعتبار انحطاط القرصنة من انحطاط المدينة كما يؤكده العديد من المؤرخين للاستعمار؟[164]